

الكتاب حيا

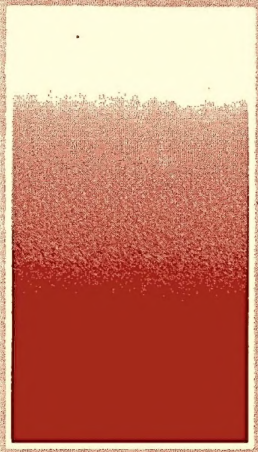


Bibliotheca Alexandrina



0101326

كشافة الجسر: يمجيت



3

الأعمال الكاملة

مركز التنمية
الحضاري



يعد رولان بارت (1915 - 1980) واحداً من أهم أعلام
الثقافة المعاصرة في فرنسا فحسب. ولكل خارجها أيضاً. ويعد
السبب الذي جعله يحظى بهذه المكانة، يمكن في حداثيته
القوية مع تيارات الطليعة الهائلة على اختراق ميادين معرفة
وعلمية شتى وفكرها (علم الاجتماع، علم النفس الفلسفي،
الادب الحديث، الأنثروبولوجيا، الدراسات الثقافية، نظرية المعرفة، ثم
المركب ببطء، والإفادة منها في إطار ما يسمى اليوم «نقد
الخطي».

ولذا كان بارت له هذا الكسب في الأوساط من هذا القرن
إلى أن بدأنا نكتف من ذلك حتى الثمانينات. حينئذ كانت
وفاة في حادث سيارة. ويعد هذا أنه، على امتداد أربعين سنة
على الأقل، أدركت الكتابة العقلية، ويعتبر واحداً من منجمي
الكتابة وصانعي المعرفة في هذا العصر.

وإن لم يكن العقيد أيضاً أن يعرف أنه لم يكن فترات من حياته
مترسلاً في أمريكا، و «رومانيا» و «مصر». وهذا يعني أنه
اجتاز مثابرة بقايات أهم عديدهم، «مناشاة إلى ثلاثة من هذا
خبرة ومفاهيم العجائب التي عاش فيها، وأنشأها الحضارة
والأفكار، وأما لأنها، أدركت أن ينسحب إلى هذا ما كانت
الحضارة اليونانية واللاتينية، ومنها.

فعل بارت في مركز البحث العلمي الفرنسي، وكان من
الجزالة فيه حزمة من الدراسات في علم الاجتماع، وفي
الإنسانيات، «تدريج عليها، شائعة وتوجيهها، كما فعل مدير
الدراسات في المدرسة الاجتماعية للدراسات العليا.

والأشرف على إدارة معهد الدراسات العليا على الاجتماع
والزراعة، والرسالة، والدراسات.



مركز التنمية الحضاري

CENTRE. ESSOR ET CIVILIZATION

المؤسسة والدراسات والتأليف

١١١

١٢

١٣١٤١٥١٦١٧١٨١٩٢٠٢١٢٢٢٣٢٤٢٥٢٦٢٧٢٨٢٩٣٠٣١٣٢٣٣٣٤٣٥٣٦٣٧٣٨٣٩٤٠٤١٤٢٤٣٤٤٤٥٤٦٤٧٤٨٤٩٥٠٥١٥٢٥٣٥٤٥٥٥٦٥٧٥٨٥٩٦٠٦١٦٢٦٣٦٤٦٥٦٦٦٧٦٨٦٩٧٠٧١٧٢٧٣٧٤٧٥٧٦٧٧٧٨٧٩٨٠٨١٨٢٨٣٨٤٨٥٨٦٨٧٨٨٨٩٩٠٩١٩٢٩٣٩٤٩٥٩٦٩٧٩٨٩٩١٠١١١٢١٣١٤١٥١٦١٧١٨١٩٢٠٢١٢٢٢٣٢٤٢٥٢٦٢٧٢٨٢٩٣٠٣١٣٢٣٣٣٤٣٥٣٦٣٧٣٨٣٩٤٠٤١٤٢٤٣٤٤٤٥٤٦٤٧٤٨٤٩٥٠٥١٥٢٥٣٥٤٥٥٥٦٥٧٥٨٥٩٦٠٦١٦٢٦٣٦٤٦٥٦٦٦٧٦٨٦٩٧٠٧١٧٢٧٣٧٤٧٥٧٦٧٧٧٨٧٩٨٠٨١٨٢٨٣٨٤٨٥٨٦٨٧٨٨٨٩٩٠٩١٩٢٩٣٩٤٩٥٩٦٩٧٩٨٩٩

○ نقد وحقيقة

حقوق النشر محفوظة

الطبعة الأولى: 1994/1/1000

الإخراج الفني وتصميم الغلاف:
جمال الأبطح



Roland Barthes

**CRITIQUE
ET VÉRITÉ**

نشر هذا الكتاب باتفاق خاص مع دار «لوسوي»، باريس

ÉDITIONS DU SEUIL
*27, rue Jacob, Paris VI**

مقدمة

بقلم د. عبد الله محمد الضحassi

يتصدى الصديق الدكتور منذر عياشي لمهمة جليلة تتمثل في مسعاه الحثيث لترجمة نصوص (النقد الألسني) من مصادره الحديثة، خاصة الفرنسي منها. وقدم من هذه النصوص النقدية المترجمة بضعة أعمال عن الأسلوبية وعلم الدلالة ومفهوم الأدب، ثم هذه الأعمال لرولان بارت. وهو بذلك يؤسس مرجعية علمية تتشكل مع مايمثلها لتكون مكتبة نقدية للباحث العربي. ولاريب أن النقد الألسني (أو اللساني لمن شاء أن يفضل ذلك) قد بدأ يأخذ موقعه الصحيح في قراءة النصوص الإبداعية واللغوية، وفي تشريحها. ولعل الأولى بي والأحرى أن أقول إن النقد الألسني قد بدأ يستعيد موقعه في الدراسات التحليلية والنظرية العربية. وأقول يستعيد قاصداً التذكير بأن الفكر العربي هو فكر قام في أساسه على التفقه باللغة وجعل اللغة باباً إلى فهم الإنسان والحياة، بما أن اللغة هي الإنسان ناطقاً

وكاتباً كتعبير عن الذات، وهي الإنسان فاهماً ومحللاً ومفكراً في الآخرين وفيما حوله من كون لا يتمثل ولا يتحقق إلا في هذه الرموز والإشارات الذهنية التي نسميها اللغة.

ومن هنا فإن الأصل في وعينا الثقافي هو أصل لغوي، وإذا ما استعدنا هذا الوعي فإننا نستعيد أصلاً من أصولنا الحضارية.

ولئن كان الغربيون قد برؤنا - اليوم - فيما أنجزوه من درس لغوي منذ دي سوسير في مطلع هذا القرن حتى اليوم فإن الواجب المعرفي يدفعنا إلى التبصر بما عندهم وإضافته إلى ماعدننا - وهذا في زعمي هو مشروع مندر عياشي، وهو مشروع الترجمات عموماً.

والذي بين أيدينا الآن هو كتاب «نقد حقيقة» لرولان بارت ولقد سبق أن ترجمه إبراهيم الخطيب. وهذه حقيقة لا تخفى على مندر عياشي، كما أنها لا تزعجني. وإن كانت تثير أسئلة وملاحظات تشبه تلك الأسئلة وتلك الملاحظات التي يطرحها الناس على تكرار تحقيق خطوط من المخطوطات وتكرار ترجمة عمل من الأعمال. أما أنا فلا يزعجني ذلك، في الترجمات الخاصة، ذلك لأن الترجمة هي أولاً نقل من نوع خاص لنص أجنبي، وهذا النقل يتضمن فهم الناقل وتفسيره للأصل، ووجود ترجمتين أو أكثر يعني وجود فهمين وتفسيرين - أو أكثر - وهذا إثراء وإضافة معرفية تزيد من ثقافة القارئ الذي لا يعرف النص الأصلي بلغته الأم، وإذا ما تعددت النقول والتفسيرات فإن القارئ سيجد ملامح متفاوتة تشير إلى الأصل وتقترب إليه. كما حدث من قبل مع نقولات وتلخيصات أسلافنا لكتاب أرسطو في الشعر. وكما حدث في ترجمات معاصرنا لأعمال

شكسبير وبحيرة لامارتين وغير ذلك من الأعمال. وكما فعل الغربيون في ترجمات المعلقات وألف ليلة وليلة، حيث تتكرر الترجمات ومن ثم تزداد المعارف من خلال تنوع التفسيرات والتأويلات ومحاولات اصطلياد أنفاس النص الأصلي وملاحقة نبضاته. ولقد وجدت أثر هذا التنوع عياناً في هذا العمل بالذات حيث قرأت كتاب رولان بارت هذا أولاً مترجماً إلى الانجليزية ثم قرأته مترجماً بقلم إبراهيم الخطيب ثم قرأته في ترجمة منذر عياشي، وأحسست أنني أقرأ رولان بارت مترجماً بالآخرين ومتداخلاً معهم، ويختلف ذلك من مترجم إلى مترجم، وهذا أسعفني إلى مزيد من التعرف على بارت والتداخل معه.

على أن تكرار الترجمة يعين على كشف وجوه الخلل والالتباس - إن وجدت - ولقد صار من المعروف الآن أن الترجمة الانجليزية لكتاب (عناصر السيميولوجيا) لـ رولان بارت قد وقعت فيها أخطاء خطيرة جداً على الرغم من نضج التفاعل الثقافي ما بين الانجليزية والفرنسية. وهذه الأخطاء حدثت في تبديل مصطلح (الدال) في خمسة مواضع من الكتاب وحل محله مصطلح (الدلول) وهذا غير مجرى الفهم ومساق التصور. ولو صار تكرار الترجمة لثم تعديل الخطأ وتصحيح الفهم.

وأنا لأسوق هذا القول لمجرد تبرير صنيع صديق عزيز، بل إنني لا أمانع أنا شخصياً من تكرار ترجمة أي عمل مهما كان، انطلاقاً من كون الترجمة تفسيراً خاصاً لإنتاج عام. والتفسير عمل ذاتي يخضع لثقافة المفسر وظروفه، ويظل العمل الأصلي بمثابة إشارة حرة تقبل مختلف التأويلات. ولن يفوتني ههنا أن أشيد بترجمة إبراهيم الخطيب ومراجعة محمد برادة

لنلك الترجمة مثلما أقدم وأبارك ترجمة منذر عياشي، راجياً أن يعمّ الحس الثقافي اللغوي في واقعنا الجديد، مثلما أرجو أن يقل أمثال ريمون بيكار في ثقافتنا - وإن كان هذا أملاً لا سبيل إلى تصور حدوثه - إذ ما أشبه الليلة بالبارحة، وما أشبه ما حدث لبارت بما يحدث لنا وما قد حدث من قبل لسلفنا المجيد أبي تمام، وسيظل الجديد مادة لأضراس المحتطين يقضمون من أطرافه ويتغلدون على مرارة عجزهم وقصورهم عن بلوغه، فيلجأون للشتيمة كما فعل بيكار ضد بارت، والكتاب يقدم صورة لهذه التراجيديا الخالدة صار بيكار بطلها هذه المرة، ومن الممكن تبديل اسم بيكار بأي اسم آخر في ساحتنا العربية مع الإبقاء على جدول الشتائم وسوف تظل النسبة والمقولة صحيحتين، مما يجعل هذا الكتاب شهادة ثقافية على التاريخ أو رواية أزلية تتنوع أسماؤها ومواقفها ولكن أحداثها واحدة، والله المستعان على ما يصفون.



ويلحق بهذا الكتاب مقالة رولان بارت (موت المؤلف) وهي مقالة نقدية لها أهمية مصيرية ليس على نقد بارت فحسب وإنما على النقد الألسني وعلى (النصوصية). وهي مقولة لا تعني ظاهر معناها اللغوي، وهي لا تعني إلغاء المؤلف وحذفه من ذاكرة الثقافة. إنها تهدف إلى تحرير النص من سلطة الظرف المتمثل بالأب المهيمن: المؤلف، إنها تفتح النص على القارئ بما أن القارئ هدف أولي للنص، وتزيح المؤلف مؤقتاً إلى أن يمتلئ النص بقارئه والقارئ بالنص ثم يصار بعد ذلك إلى استدعاء المؤلف ليحضر حفلة زفاف النص إلى قارئه ليبارك هذه العلاقة الجديدة

وينتظر الولادة الآتية فرحاً لابنه - حسب تعبير أبي تمام - أو شوارده - حسب المتنبي - لكي يتزوج الابن ويتمدد في أسرة جديدة من النصوص الموازية، ولكي تدخل الشاردة في خصام مع الخلق يجعلهم يسهرون حيث ينাম المؤلف/ الأب سعيداً بمجرد نصه وتاريخانيته المستديرة.

وموت المؤلف إذن ليس فناءه ولا نهايته، بل هو - فحسب - ترقيع للنص عن شروط الظرفية وقيودها، ومن ثم فتح المجال لنصوصية النص لكي يدخل النص إلى آفاق الإنسانية عابراً للزمان والمكان، حيث يكون النص والإبداع هو الأصل الذي يلتقي عنده المؤلف والقارئ. ولن يتسنى للنص أن يأخذ مداه مع القارئ ومع التاريخ إلا بعد أن يستقل عن سلطة المؤلف وهيمنته، على أن المؤلف الأكبر والأهم للنص هو الموروث الأدبي الذي يشكل سياقاً مصدرياً ومرجعياً للنص مثلما يشكل أساساً لفهم النص وتفسيره بعد أن كان مصدراً لإنتاجه وحدوثه. وهذا لا يلغي المؤلف ولا يقلل من دوره، ولكنه يوجه الانتباه إلى علاقات التبادل والتقاطع ما بين النص كإبداع ذاتي والموروث كمطاء مائل ذي وجود سابق على النص ولاحق به ومحيط بكل تحولاته.

وترجمة مقالة بارت عن (موت المؤلف) تصبح بذلك ضرورة ثقافية تفيد في إثراء الوعي النقدي الألسني والنصوي، وتساعد على تأكيد المفاهيم وإشاعتها بين أهل المعرفة من ذوي الاختصاص ومن طلاب الدرس الأدبي. وإني لأحس أنا شخصياً بهذه الفائدة منذ أن استخدمت مفهوم (موت المؤلف) في دراساتي النقدية ووجدت عنتاً في جعل قرائي يدركون البعد الاصطلاحي النصوي لهذا المفهوم. ولذا فإني أبتهج

بترجمة هذه المقالة أملاً أن يكون ذلك سبباً لإزاحة اللبس ومن ثم تحقيق المعنى الاصطلاحي لهذه المقولة.

تلك بعض الغايات نهج إليها الصديق الدكتور منذر عياشي إحدى السبل، ولاريب أن الغايات كبيرة ومتعددة، والوسائل غير محصورة، ويحتاج ذلك إلى جهد متصل لست أشك أبداً في أن الدكتور عياشي لن يكل عن مواصلة مسعاه فيه.
وعلى الله قصد السبيل.

موت المؤلف

موت المؤلف...

حين كان بالزك يتكلم في قصته سارايزن عن غُصَيِّ تَزِيَّا بَزِيَّ امرأة، كتب هذه الجملة: «كان المرأة، بكل مخاوفها المفاجئة، وكل نزواتها الطائشة، واضطراباتها الغريزية، واجتراعاتها من غير سبب، وتبجحاتها، ورقة مشاعرها».

فمن يتكلم هكذا؟ هل هو بطل القصة، ليستفيد بتجاهل المخصي الذي يختبئ تحت ستار المرأة؟ أم تراه يكون بالزك الفرد، مزوداً بفلسفة عن المرأة من خلال تجربته الشخصية؟ أم هو المؤلف بالزك، يشير بأفكار «أدبية» عن الأنوثة؟ هل هي الحكمة الكونية؟ أم تراها: تكون علم النفس الرومانسي؟

لا يمكن لأحد أن يعرف أبداً. والسبب، لأن الكتابة هدم لكل صوت، ولكل أصل. فالكتابة هي هذا الحياء، وهذا المركب، وهذا الانحراف الذي تهرب فيه ذواتنا. الكتابة، هي السواد والبياض، الذي تتيه فيه كل هوية، بدءاً بهوية الجسد الذي يكتب.

لقد كان ذلك كذلك دائماً من غير ريب: فما أن يُروى حدث ما، لغايات غير متعددة، وكذلك ليس بقصد التأثير تأثيراً مباشراً على الواقع، أي خارج أي وظيفة ماعدا الممارسة الرمزية نفسها في النهاية، حتى يظهر هذا الانفكاك، وحتى يفقد الصوت أصله، ويدخل في موته الخاص، وتبدأ الكتابة. ومع ذلك، فإن الشعور بهذه الظاهرة كان متغيراً. ففي المجتمعات العرقية لا يأخذ شخص القصة على عاتقه، ولكن ثمة وسيط يقوم بذلك. إنه الشامان أو الراوي. ولعلنا نعجب بأدائه (أي بسيطرته على قانون السرد)، ولكننا لن نُعجب أبداً بـ«عقريته». فالمؤلف شخص حديث. وهو، من غير شك، منتج من منتجات مجتمعاتنا. فالمجتمع حين خرج من القرون الوسطى معضداً بالتجريبية الإنكليزية، والعقلانية الفرنسية، والإيمان الشخصي بحركة الإصلاح، قد اكتشف مكانة الفرد، أو كما يقال بشكل أكثر نبلاً، قد اكتشف «الشخص الإنساني». وإنه لمن المنطقي إذن، أن يعقد المذهب الوضعي في مادة الأدب، أهمية عظمى على «شخصية» المؤلف. فهذا المذهب هو خلاصة الإيديولوجية الرأسمالية، ومخط غايتها.

ولا يزال المؤلف أيضاً يهيمن على كتب التاريخ الأدبي، وعلى السير التي تترجم حياة الكتاب، وعلى حوارات المجلات، وعلى وعي الأدياء نفسه. فهؤلاء حريصون أن يصلوا، في مذكراتهم الشخصية، بين شخصياتهم وأعمالهم. ولذا، فإن صورة الأدب التي نستطيع أن نقف عليها في الثقافة المألوفة، قد ركزت بشكل جائر على المؤلف،

وشخصيته، وتاريخه، وأذواقه، وأهوائه. ولا يزال قوام النقد، في معظم الأحيان، ينصبُّ على القول مثلاً: إن عمل بودلير، يمثل إخفاق الإنسان بودلير، وإن عمل فان غوغ، يمثل جنونه، وإن عمل تشايكوفسكي، يمثل رذيلته. وهكذا، فإن البحث عن تفسير للعمل، يتجه دائماً إلى جانب ذلك الذي أنتجه، كما أن عبر المجاز الشفاف للخيال، ثمة صوت دائم لشخص واحد، هو صوت المؤلف الذي أدلى «بمكنونه».



إنه على الرغم من أن امبراطورية المؤلف لاتزال عظيمة السطوة (لم يكن عمل النقد الجديد في الغالب سوى تعضيْد لها)، فمن البدهي أن بعض الكتّاب، قد حاول، منذ أمد بعيد، أن يزلزها. ولقد كان مالارميه هو أول من رأى في فرنسا، وتنبأ بضرورة وضع اللغة نفسها مكان ذاك الذي اعتبر، إلى هذا الوقت، مالكا لها. فاللغة، بالنسبة إليه كما هي الحال بالنسبة إلينا، هي التي تتكلم وليس المؤلف. وبهذا يصبح معنى الكتابة، هو بلوغ نقطة تتحرك اللغة فيها وحدها، وليس «الأنا»، وفيها «تنجز الكلام». وسيكون ذلك عبر موضوعية أولية، لا تختلط في أي لحظة من اللحظات مع موضوعية الروائي الخاصة: فشعرية مالارميه جميعاً، إنما تقوم على حذف المؤلف لمصلحة الكتابة (ويكون هذا، كما سنرى بإعطاء القارئ مكان المؤلف). وأما فاليري فيخفف من حدة نظرية

كتابياً فقط: إنه يحول النص الحديث من أدناه إلى أعلاه (أو- يمكننا أن نقول أيضاً وهذا يعني الشيء نفسه - إن النص ليُصنع من الآن فصاعداً ويُقرأ بطريقة تجعل المؤلف عنه غائباً على كل المستويات).

فالزمن، بادئ ذي بدء، لم يعد هو نفسه. والمؤلف، عندما نعتقد بوجوده، إنما يكون مُصمماً كما لو أنه دائماً ماضي كتابه بالذات.

فالكتاب والمؤلف يقفان تلقائياً على خط واحد موزع على «قبل» و«بعد»: فالمؤلف مكلف بتغذية الكتاب، وهذا يعني أنه يوجد قبله، فيفكر، ويتأمل، ويعيش من أجله. وإنه أيضاً ليقف في علاقته مع كتابه موقف الأب من طفله، فهو سابق عليه وجوداً. غير أن الأمر على العكس من هذا بالنسبة إلى الناسخ الحديث. إذ هو يلد في الوقت نفسه الذي يلد فيه نصه. وما كان ذلك كذلك إلا لأن النص لا ينطوي، ولا بأي شكل كان، على كائن سابق أو لاحق على كتابته.

ثم إن هذا لا يتصل بالموضوع لكي يكون كتابه محمولاً عليه. ولا وجود لزمن آخر غير زمن التعبير. فكل نص هو نص مكتوب بشكل أبدي «هنا» و«الآن»، ذلك لأنه لم يعد في مقدور الكتابة أن تدل على عملية تسجيل، وإثبات، وتمثيل، ورسم (كما كان يقول الكلاسيكيون)، ولكنها بالفعل مايسميه اللسانيون - على إثر الفلسفة في أكسفورد - أداء. وهو شكل كلامي نادر (يقوم على ضمير المتكلم مطلقاً ويتخذ الزمن الحاضر) ليس للتعبير فيه أي مضمون سوى الفعل الذي يلفظ التعبير فيه نفسه: إنه شيء يشبه قول الملوك «أعلن»، أو قول الشعراء القدامى «أغني».

لقد دفن الناسخ الحديث المؤلف. ولم يعد يستطيع إذن، أن يعتقد - وذلك حسب الرؤية المشجية لسابقه - أن يده بطيئة جداً في مجازاة فكره وانفعاله. وفي النتيجة كان عليه لزاماً، وقد اصطنع من الضرورة قانوناً، أن يركز هذا التأخير ويَقْوَمُ شكله. غير أن الأمر بالنسبة إليه على العكس من ذلك. فيده مطلقة من كل صوت. وهي إذ تحملها حركة التسجيل (وليس التعبير)، فإنها تقص أثر حقل من غير أصل، أو على الأقل، إنه حقل ليس له أصل آخر سوى اللغة نفسها، أي ذلك الأمر الذي لا يتوقف عن وضع كل أصل موضع شك.



إننا لنعرف الآن أن النص ليس سطرأً من الكلمات، ينتج عنه معنى أحادي، أو ينتج عنه معنى لاهوتي (لرسالة) جاءت من قبل الله). ولكنه فضاء لأبعاد متعددة، تتزاوج فيها كتابات مختلفة وتتنازع، دون أن يكون أي منها أصلياً: فالنص نسيج لأقوال ناتجة عن ألف بؤرة من بؤرة الثقافة.

إن الكاتب لا يستطيع إلا أن يحاكي حركة سابقة له على الدوام، دون أن تكون هذه الحركة أصلية. وإنه ليشبه في هذا بوفار وييكوشيه. فهذان الناسخان الأبديان، الرائعان والمضحكان في الوقت نفسه، يشير عمقهما التأف إلى حقيقة الكتابة. ولقد تجل سلطنة الكاتب في خلط الكتابات، وفي معارضتها بعضها ببعض،

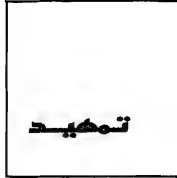
لنعد إلى جملة بالزائد. فما من أحد (أي ما من شخص) قالها: ليس ينبوعها هو المكان الحقيقي للكتابة، ولا صوتها، وإنما هو القراءة. وثمة مثل آخر يستطيع أن يجعل الأمر مفهوماً، فهو أشد ما يكون دقة: لقد قام (ج.ب. فرمانت) بأبحاث حديثة أنارت طبيعة المأساة الإغريقية الغامضة في تكوينها. فالنص فيها منسوج من كلمات ذات معنى مضاعف. وكل شخصية من شخصياتها تفهم المعنى بشكل أحادي (وإن سوء التفاهم المستمر هو «المأساة» تحديداً). ومع ذلك، ثمة شخص يفهم الكلمات في معناها المضاعف. بل أكثر من ذلك، إنه يفهم إذا جاز لنا القول، صمم الشخصيات نفسه، التي تتكلم أمامه. وهذا الشخص هو القارئ على وجه الدقة (أو هو، كما هي الحال هنا، السامع). وهكذا ينكشف الحجاب عن الكائن الكلي للكتابة.

النص مصنوع من كتابات مضاعفة. وهو نتيجة لثقافات متعددة، تدخل كلها بعضها مع بعض في حوار، ومحاكاة ساخرة، وتعارض. ولكن ثمة مكان تجتمع فيه هذه التعددية. وهذا المكان، ليس الكاتب، كما قيل إلى الوقت الحاضر، إنه القارئ. فالكاتب هو الفضاء نفسه، وفيه تكتب كل الاستشهادات نفسها دون أن يضيع شيء منها. فالكتابة مصنوعة منها، وإن وحدة النص ليست في أصله، ولكنها في القصد الذي يتجه إليه، غير أن هذا الاتجاه لا يستطيع أن يكون شخصياً: فالقارئ إنسي من غير تاريخ، ولا سيرة ذاتية، ولا تكوين نفسي. إنه فقط ذلك الشخص الذي يجمع في

حقول واحد كل الآثار التي تتكون الكتابة منها. ولذا، فإنه لأمر
سخيف أن نسمع إدانة الكتابة الجديدة باسم أنسنة صنعت من
نفسها، بخبث، بظلة حقوق القارئ. فالنقد الكلاسيكي، لم يهتم
قط به. وبالنسبة إلى هذا النقد، لا يوجد إنسان في الأدب سوى ذلك
الذي يكتب.

إننا لم نعد الآن ننخدع بهذه الأنواع من المعاني المقلوبة فالمجتمع
الراقي يعترض بها اعتراضاً رائعاً دفاعاً عما يبغده تحديداً وما
يتجاهله، ويخنقه أو يدمره. ولقد نعلم أنه لكي تسترد الكتابة
مستقبلها، يجب قلب الأسطورة. فموت الكاتب هو الثمن الذي
تطلبه ولادة القراءة.

رولان بارت



لم يبدأ مانسميه النقد الجديد تاريخه اليوم. فمنذ الاستقلال (وهذا أمر طبيعي) باشر بعض النقاد المحكتين بالفلسفات الجديدة إعادة النظر في أدبنا الكلاسيكي. وهؤلاء النقاد إذ هم يختلفون جداً عن سابقهم، يستقلون أيضاً عن الدراسات الأحادية والمتنوعة، التي غطت مجموع كتابنا من مونتني إلى بروسست. وليس ثمة مايدش إذا استعاض بلد، دورياً، مواضع تاريخه، ووصفها مجدداً لكي يعرف مايفعل بها. ويجب أن تكون هذه الأمور إجراءات منظمة للتقييم.

ولما صار الحال كذلك، فقد قام قائم على حين غفلة، فقذف هذه الحركة بالدجل⁽¹⁾. وأنشأ ضد مؤلفاتها (أو على الأقل ضد

(1) رعون بيكار: النقد الجديد أو الدجل الجديد، باريس.
= J.L. Pauvert, Collection "Liberté" 1965, 149 P.

عملية التنظيف: فلقد وعد بالخلود، وصير اليوم إلى ثقيله⁽⁵⁾. وباختصار، فإن تنفيذ حكم الإعدام بالنقد الجديد، يبدو مهمة من مهام الصحة العامة. ولذا، فإن هذا الأمر يحتاج إلى الإقدام، ونجاحه يحقق الراحة.

إن هذه الهجمات التي تشنها مجموعة محدودة، تتسم بنوع من الإيديولوجيا. وإنما لتغوص في منطقة ملتبسة من الثقافة، حيث ثمة شيء سياسي على الدوام، ينفذ إلى الحكم واللغة بمعزل عن اختيارات اللحظة الراهنة⁽⁶⁾. ولو كان الأمر في ظل الإمبراطورية الثانية، لحوكم النقد الجديد: ألم يجرح العقل بمخالفته «الأوليات قواعد التفكير

(5) «أعتقد فيها بخصني أن كتب السيد بارت ستشيخ بسرعة أكبر من كتب السيد بيكار» (E. Guilton. le Monde, 28 Mars 1964). ولقد وددت أن أقبل السيد ريمون بيكار لأنه كتب... هجاءه (مكذبا) (Jon Cou.) (Pariscepe).

(6) «يرد ريمون بيكار هنا على التقديمي رولان بارت... بيكار يفهم هؤلاء الذين يدلون التحليل الكلاسيكي بالطباعة الفوقية لملوستهم الكلامية، كما يرد على أولئك الذين أصابهم هوس حل الرموز، والذين يعتقدون أن الناس جميعاً يفكرون مثلهم بموجب ما تقتضيه القبلانية (تفسير اليهود للتوراة صوفياً ورمزياً حسب التقاليد كما كان القدامى يفعلون «م»)، أو حسب أسفار موسى الخمسة، أو بنبوءات ميشيل دي نوتردام. وإن المنتخبات الرائعة «حريات» التي يشرف عليها جان فرانسوا ريفيل (ديدرو، سيلس، روجيه، رسل) سترجع أيضاً كثيراً من الأنياب، ولكنها لن تنال، بالتأكيد، من أنيابنا».

(Europe - Action, Janu. 1966).

العلمي، الواضحة بكل بساطة؟ ألم يصدّم الأخلاق حين أدخل في كل شيء «الوساوس الجنسية، الجموحة، والوقحة»؟ وألا يفقد الثقة في مؤسساتنا الوطنية في نظر الأجنبي؟ وباختصار، أليس النقد الجديد «خطراً»؟

إذا طبقت هذه الكلمة على الذهن، واللغة، والفن، فإنها ستعلن مباشرة عن فكر انكفائي، يعيش الخوف فعلاً (حيث وحدة صور المدم)، ويخشى من كل تجديد. وسيكون متهاً أبداً بأنه «فارغ» (وهذا كل ما يجده المرء عموماً من قول إزاء كل جديد). ومع ذلك، فإن هذا الخوف التقليدي، يعرقله اليوم خوف معاكس. إنه خوف الظهور بمظهر بائد تاريخياً. ولما كان الأمر كذلك، جانس بعضهم بين الريبة من الجديد والإجلال إزاء «إغراءات الحاضر»، أو إزاء ضرورة «إعادة التفكير في قضايا النقد». وقد كان القصد من هذا، إبعاد «العودة غير المجدية إلى الماضي بحركة خطائية جميلة»⁽⁷⁾. وما كان ذلك إلا لأن الانحسار يبدو اليوم مخجلاً، كما هو حال الرأسمالية⁽⁸⁾.

(7) E. Guittan. Le Mande, 13 nou. 1966 – R. Picard, op. cit. P. 147 – J. Piatier, Le Mande, 23 oct, 1965.

(8) أكد خمسة من أنصار وج. ل. تيكسي فينيكور، في بيان أصدره، إرادتهم في «متابعة نشاطهم على أساس تنظيم مناضل وإيديولوجية قومية... يكون قادراً على مجابهة الماركسية والتفوقراطية الرأسمالية مواجهة فعالة». (Le Monde, 30 – 31 Janv. 1966)

ولعل تأكيداتهم تكمن في هذا: فقد تظاهروا، بادىء ذي بدء، بتحمل الأعمال الحديثة، والتي تستوجب الكلام، لأن ثمة من يتكلم عنها. ثم فجأة، بعد أن بلغوا حداً من الحدود عبروا إلى القتل الجماعي. وإن هذه المحاكيات التي تقوم بها، بشكل دوري، مجموعات منغلقة على نفسها، ليس فيها ما هو مستغرب. إنها تأتي كمحصلة لقطيعة في التوازن. ولكن لماذا كان النقد اليوم؟

إن الأمر الذي يستحق الذكر في هذه العملية، لا يأتي من كون هذه العملية تعارض بين القديم والجديد، ولكن من كونها تفرض خطراً، كرد فعل سافر، على بعض من الكلام دار حول الكتاب: إن ما لا يمكن للمرء أن يقبله هو أن يستطيع الكلام أن يتكلم عن الكلام. هذا، لأن الكلام المزدوج يستدعي عند بعض المؤسسات تنبهاً خاصاً. وهي، من عاداتها، أنها تحبسه تحت سيطرة نظام ضيق: ففي دولة الأدب، يجب على النقد أن يكون «منضبطاً» كالشرطة في انضباطها: وإن تحرير أحدهما سيكون في «خطورته» معادلاً لانتشار الآخر: وهذا يعني الاعتراض على سلطة السلطة، وعلى لغة اللغة.

وكذلك، فإن المرء إذا أنشأ كتابه ثانية مع الكتابة الأولى للكتاب، فإن هذا يعني فعلاً أنه يشق طريقاً أمام إبدالات غير متوقعة، أو أنه يلعب لعبة المرايا اللامتناهية. وإن هذا المخرج هو موضع الريبة. ومادام النقد لا يتعدى حدود وظيفته التقليدية في إصدار الأحكام، فإنه لا يستطيع إلا أن يكون امتثالياً،

Conformiste، أي أنه يمثل لما نغليه عليه مصالح القضاة. ومع ذلك، فإن النقد الحق الذي تمارسه المؤسسات واللغات لا يقضي بإصدار الأحكام على المؤلفات، ولكن بتمييزها، وفصلها، وإحداث إنشطار فيها.

إن المثالب التي يأخذونها اليوم على النقد الجديد، ليس لأنه جديد، ولكن لأنه نقد بكل معنى الكلمة، وكذلك، فإنهم يعيرون عليه أنه يعيد توزيع الأدوار الخاصة بالمؤلف والمعلق، وإنهم ليرون في هذا اعتداء على نظام الألسنة. وإزاء هذا كله، فإنهم لا يملكون سوى ملاحظة الحق، فهم به على النقد الجديد يعترضون ليكون لهم أمناً. وهذا حق يجعلهم يزعمون أنهم ولاية السلطة، وماكان ذلك منهم إلا لكي يقوموا بتنفيذ الحكم.

1

أنشأ أرسطو تقنية للكلام الإبداعي .
وقد بناه على وجود «المحتمل» . وهو
أمر أودعه في ذهن البشر التقليد،
والحكماء، والأكثرية، والرأي العام،
إلى آخره .

الناقد المحتمل

و«المحتمل»، على هذا الأساس، هو
ما لا يتعارض في عمل ما، أو في خطاب ما، مع أي من هذه
السلطات . وإذا كان المحتمل هو هذا، فإنه لا يتناسب مع ما كان
(فهذا من شأن التاريخ)، ولا مع ما يجب أن يكون (فهذا من شأن
العلم)، ولكنه يتناسب ببساطة مع ما يعتقد الجمهور بأنه ممكن . وما
ذلك إلا لأنه يستطيع أن يكون مقارناً للواقع التاريخي، أو للممكن
العلمي .

ولقد أسس أرسطو بهذا نوعاً من الجمال الخاص بالجمهور . فإذا
طبقناه اليوم على المؤلفات الجاهلية، فقد نصل إلى إعادة المحتمل

بناءً ومفهوماً لعصرنا. وليس هذا إلا لأن مثل هذه المؤلفات لاتتقف على النقيض مما يعتقد الجمهور أنه ممكن، مهما بلغت استحالة هذا الأمر تاريخياً أو علمياً.

إن النقد القديم على صلة، مع مايمكن أن نتخيله عن نقد الجماهير. ومهما كان الأمر ضئيلاً، فإن مجتمعا ذاهب في استهلاك التعليق النقدي كما يستهلك الفيلم، والرواية، والأغنية. وإن لهذا النقد جمهوره على المستوى الثقافي للأمة. فهو يهيمن على الصفحات الأدبية لبعض الصحف. ويتحرك ضمن منطق ثقافي، حيث لايمكن لأحد أن ينتصب مناقضاً لما يصدر عن التقاليد، والحكماء، والرأي السائد، إلى آخره. وباختصار ماكان هذا ليكون لو لم يكن هناك محتمل نقدي.

لم يعد هذا المحتمل يعبر عن نفسه في بيانات مبدئية. وذلك لأن ماهو بدهي، يبقى دون منهج. وأما السبب، فلأن المنهج مخالف لعقل الشك الذي يتساءل به المرء عن المصادفة أو عن الطبيعة. ولقد تعلم هذا من دهشة خاصة وسخطه على «شطط» النقد الجديد: فكل شيء يبدو له «عيباً»، و«أخرقاً»، و«ضلالاً»، و«مرضياً»، و«مجنوناً»، و«مفزعاً»⁽⁹⁾. وإن المحتمل النقدي ليحب البدهيات حباً

(9) إليكم بعض ما قاله بيكار من عبارات توجه بها إلى النقد الجديد: «دجل»، «المخاطر والأعرق» ص(11)، «التحذلق» ص(39)، «الاستقراء الضال»

جماً. غير أن هذه البدهيات عبارة عن بدهييات معيارية على وجه الخصوص. إذ ينبغي، بطريقة التعاكس المعتادة، المدهش من المنوع، أي من الخطر: فالأخطاء، هي أخطاء الأثام⁽¹⁰⁾، آثام الأمراض. والأمراض هي أمراض سوء الخلقة. وبما أن هذا النظام فائق ضيقاً، فإنه يطفح بأي شيء: فإن آل إلى ذلك، انبثقت بعض القواعد، يدركها المحتمل الذي لا يمكننا أن ننتهكه دون أن تحدث صدمة من نوع مضاد لطبيعة النقد، وأن نقع فيما نسميه «علم الأجنة المسوخة» Teratologie. فما هي، إذن، قواعد المحتمل النقدي في عام 1965 ؟ .

ص(40) «طريقة مفرطة، اقتراحات مغلوطة، خرقاء» ص(47)، «السمة المرضية لهذه اللغة» ص(50)، «العيث» ص(52)، «احتياك ثقافي» ص(54)، «كتاب يثير التمرد» ص(57)، «انفراط في الميوعة الراضية»، «جدول من الاستدلال المغلوط» ص(59)، «تأكيدات مجنونة» ص(71)، «سطور مفزعة» ص(73)، «نظرية شاذة» ص(73)، «خفية وعابرة وفارغة» ص(75)، «نتائج قسرية، غير متناسكة، وعشبية» ص(92)، «عبث وغرابة» ص(146)، «حماسة» ص(147)، ولكن هذا كله لم يكن من بيكار، إنه موجود عند سانت بوف الذي عارضه بروست، وهو موجود عند نوربوا «قاتل» بيرغوت.

(10) أعلن قارئ من قراء جريدة (Le Monde) بلغة دينية عجيبة أن مثل هذا الكتاب في النقد الجديد «ملئ بالأثام ضد الموضوعية» (27 nov, 1965).

2

الموضوعية

إليكُم الأولى. فلقد جعلوها آذاننا صماً: إنها الموضوعية. فما عساها أن تكون في مادة النقد الأدبي؟ وما هي سمة العمل النوعية التي «توجد خارجاً عنا»⁽¹¹⁾. يبدو أن هذا «الخارج» نفيس جداً لأنه يحدد شذوذ النقد. ولذا، يجب أن نتفق عليه بسهولة. وماكان ذلك كذلك إلا لأنه مستخلص من متغيرات فكرنا. ومع هذا، فنحن لانكف عن إعطائه تعريفات مختلفة.

قديمًا، كان هذا الخارج هو العقل، والطبيعة، والذوق، إلى

(11) «الموضوعية: مصطلح فلسفي معاصر. وصفة لما هو موضوعي، وجود الأشياء خارجاً عنا» عن قاموس (Litttré).

آخره. أما في الأمس، فقد كان حياة الكاتب، كما كان «قوانين الجنس»، والتاريخ. وما نحن اليوم أيضاً، نتلقى تعريفاً مختلفاً، إنهم يقولون لنا إن العمل الأدبي يحتوي على «بدهيات». وأنه يمكن استخراجها اعتماداً على «يقينيات اللسان، ومستلزمات التماسك النفسي».

نلاحظ أن عدة نماذج شبيهة تختلط هنا. أما الأول فذو نظام معجمي: إذ يجب على المرء حين يقرأ كورناني، وموليير، وراسين أن يضع إلى جانبه قاموس كايرو «الفرنسية الكلاسيكية». نعم، يجب هذا من غير شك. وهل ثمة معترض عليه؟ ولكن، ماذا ستفعلون بمعنى الكلمات المعروف؟ إن مانسميه (ونريد أن يكون هذا سخرية) «يقينيات اللسان»، ليست هي يقينيات اللغة الفرنسية، أو يقينيات القاموس.

إن ما يبعث على الضيق (أو السرور) هو أن اللغة المستعملة ليست سوى مادة للغة أخرى، لانتاقض الأولى، وملئمة بالرية: فإلى أي أداة من أدوات التحقيق، وإلى أي قاموس ستخضعون هذه اللغة الثانية، العميقة، والواسعة، والرمزية، التي صنع منها العمل، ثم كانت على وجه التحديد، لغة المعاني المتعددة؟⁽¹²⁾. ويمكن أن يقال

(12) وإن كنت غير متعلق بشكل خاص بالدفاع عن كتابي «حول راسين»، إلا =

الشيء نفسه عن «التباسك النفسي». فبأي مفتاح ستمضون في قراءته؟ فهناك طرق عديدة لتسمية السلوكيات الإنسانية، وما أن تتم تسميتها حتى تكون أماننا طرق عديدة لوصفها: فمستلزمات علم النفس التحليلي تختلف عن تلك المتبعة في علم النفس السلوكي، إلى آخره. وقد يبقى علم النفس السائد ملجأ أخيراً، فكل الناس يستطيعون معرفته. ولأنه كذلك، فهو يعطي شعوراً كبيراً بالطمأنينة. وبشأن سوء الحظ أن يكون علم النفس هذا مصنوعاً من كل ماتعلمناه في المدرسة عن راسين، وكورنيه، إلى آخره - وهذا يعود علينا بالطمأنينة على الكاتب، لأنه يستخدم الصورة المكتسبة

== أنني لا أستطيع أن أدع ما قالته جاكلين بياتين يتكرر كما حدث ذلك في جريدة Le Monde، (23 oct. 1965)، حيث رأت أنني قمت بإحداث معنى مضاد في لغة راسين، فإذا كنت، مثلاً، قد حددت ماهو موجود من التنفس في فعل تنفس، فإن هذا لا يعني أنني أجهل ما كان يعنيه في ذلك العصر، أي (استراح)، وذلك كما قلته في كتابي (حول راسين. ص57). ذلك لأن المعنى القاموسي لم يكن متناقضاً مع المعنى الرمزي. وهذا المعنى هو بالمصادفة أو بشكل جد مأكراً، هو المعنى الأول. وحول هذه النقطة، كما هو الأمر بالنسبة لنقاط أخرى، فإنني رجوت بروسست أن يجيب، ذلك لأن نشرة بيكار المجانية، والتي اتبعتها أنصاره من غير مراقبة، تأخذ الأشياء من أسفلها. ولأذكرن ما كتبه بروسست إلى بول سودي الذي اتهمه بارتكاب أخطاء في اللغة الفرنسية. «يستطيع كتابي أن لا يكشف عن أي موهبة، ولكنه يفترضها على الأقل. وإنه لما يستلزم كثيراً من الثقافة ألا يكون فيه احتفال أخلاقي لكي أقترف أخطاء بشعة، كذلك التي أشرت إلىها». عن كتاب وختارات من الرسائل». ص/1965/169. Plon.

التي نعرفها عنه: وباله من حشولفظي جميل! وكذلك القول عن شخصيات (آندروماك) إنهم «مجانين، وإن عنف هواهم، إلى آخره»⁽¹³⁾، فهذا تجنب للعبث، يجعل التفاهة ثمناً، دون أن يعصم المرء نفسه من الخطأ. وأما ما يخص «بنية الجنس»، فنريد أن نعلم أكثر: لقد مضت مئة سنة ونحن نتحدث حول كلمة «بنية». ولكن هناك مذاهب بنيوية متعددة: التكوينية، والظاهرانية، إلى آخره. فأى المذاهب البنيوية هو المقصود؟ وكيف نعثر على البنية من غير أن نستعين بنموذج منهجي؟ وهل يأخذ العمل مأخذاً تراجمياً لأن قانون التراجيديا معروف بفضل المنظرين الكلاسيكيين. ولكن ما ستكون عليه حال «بنية» الرواية إذن، تلك الرواية التي يقع عليها عبء معارضة «شواذ» النقد الجديد؟.

ليست هذه البدهيات إذن سوى مجموعة من الاختيارات. فإذا أخذت حرفياً، فسرى أن الأولى منها ساخرة، أو إذا شئت، فتقع خارج كل ملاعة. ثم إننا لم نر أحداً ولن نرى أبداً من يعترض على أن للخطاب معنى حرفياً، نجربنا عنه فقه اللغة عند الحاجة.

والمسألة في رأينا، هي أن نعرف إذا كنا نملك الحق أولاً، في أن نقرأ في هذا الخطاب الحرفي، معاني أخرى لاتتعارض معه. ولقد نعلم أن القاموس لن يجيب على هذا السؤال، ولكن الذي يجيب هو

R. Picard, op. cit. P.30. (13)

قرار جماعي حول الطبيعة الرمزية للغة. ويقال الشيء نفسه بالنسبة «للبلدهيات» الأخرى: فلقد سبق لهذه أن كانت جملة من التأويلات، وذلك لأنها تفترض اختياراً مسبقاً للنموذج النفسي أو البنيوي.

ويمكن لهذا النظام - لأنه كذلك - أن يتنوع. وهذا يعني إذن، أن أي موضوعية نقدية لا تقوم على اختيار النظام، ولكن على الدقة التي تطبق بها النموذج الذي اختارته على العمل. وليس هذا بالقليل على كل حال. ولكن بما أن النقد الجديد لم يقل قط شيئاً آخر، وأسس موضوعية وضعه على التماسك، فلم يكن ثمة ما يدعو إلى إعلان الحرب عليه. فالمحتمل النقدي يختار عادة نظام الرسالة. وهو اختيار مثل أي اختيار آخر. ولكن لننظر مع ذلك إلى ما يكلفه.

يذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى القول إنه تجب «المحافظة على معنى الكلمات». ويمكن القول باختصار ليس للكلمة سوى معنى واحد: هو المعنى الحقيقي. وإن هذا المذهب ليؤدي، تعسفياً، إلى الريبة، أو إلى ما هو أسوأ. فقد يؤدي بالصورة إلى ابتذال عام: إذ تمنع مرة بكل بساطة (يجب أن لا نقول إن تيتوس قتل بيرنيس لأن بيرنيس لم تمت مقتولة)، ويقلل من قيمتها، مرة أخرى، باصطناع السخرية في تناولها حرفياً (إن ما يربط بيرون الشمس بدموع جوقي يعود إلى فعل «الشمس التي تحفف المستنقع»، أو إلى «استعارة أخذت من علم الفلك»). ونلج ثالثة أن ليس في الصورة سوى طابع لعصر معين (يجب أن نحس أي نفس هو في تنفس، لأن تنفس تعني

في القرن السابع عشر استراح).

وهكذا نأتي إلى درس فريد في القراءة: يجب قراءة الشعراء من غير استدعاء إيجائي: ممنوع أن نترك أي رؤية تعلق خارج هذه الكلمات البسيطة جداً، والعادية جداً - مهما كان استعمال العصر لها - والتي هي المرفأ، والسلطان، والدموع. وهذا يعني أن الكلمات لم يعد لها قيمة مرجعية، ولكن قيمة استهلاكية فقط: إنها تستخدم في الإيصال، وليس في الإيحاء، شأنها في ذلك شأن أبسط عمليات التبادل التجاري. وباختصار، فإن اللسان لا يقترح إلا يقيناً واحداً: يقين الابتذال: وهذا إذن، هو ما نختاره دائماً.

وثمة ضحية أخرى لهذه الرسالة: إنها الشخصية. فهي هدف لذين مبالغ فيه وساخر. إذ لاحق لها أن تستخدم نفسها، ولاحق لها أن تبرز مشاعرها: وأما البنية، فهي فئة لا يعرفها المحتمل النقدي. (أورست وتيروس لا يستطيعان أن يكذبا على أنفسهما)، والشبح أيضاً (فليريغيل تحب إثيل دون أن تتصور أو يداخلها الشك بأنها به مغرمة). وإن هذا الوضوح المدهش للكائنات وعلاقاتهم ليس خاصاً بالخيال. فالحياة بالنسبة إلى المحتمل النقدي هي الوضوح: أما الابتذال نفسه فيسوي العلاقة بين البشر والعالم في الكتاب. ولقد قيل ما من فائدة تدفع المرء أن يرى في عمل راسين مسرحاً للأسر. فهذا جزء من الأوضاع السائدة. وكذلك، فإنه من غير المفيد أن ننسب إلى علاقة القوة التي تبرزها المأساة عند راسين، ولنتذكر هذا،

إن السلطة تكوّن كل المجتمعات. وهذا اعتراف فعلي، لا يخلو من اعتدال في المزاج، بحضور القوة في العلاقات الإنسانية.

ولم يتوقف الأدب، وإن كان أقل قرفاً، عن التعليق على السمة الفظة للمواقف المبتذلة، وذلك لأن الأدب على وجه الدقة، هو الكلام الذي يصنع من علاقة سائدة علاقة أساسية. وهو الذي يصنع أيضاً من هذه علاقة فضائية. وهكذا نرى أن الاحتمال النقدي إنما يستخدم لكي يُنقص من كل شيء فُرصة: فما يبدو في الحياة مبتذلاً، يجب أن لا يكون مستيقظاً. والأمر الذي لا يكون في العمل كذلك، فيجب، على العكس من هذا، جعله مبتذلاً: ولعل هذه جمالية فريدة. فهي تحكم على الحياة بالصمت، كما تحكم على العمل باللامعنى.

3

عندما نعبّر إلى قواعد المحتمل
النقدي الأخرى، يجب أن نهبط
أكثر، وأن نلامس الرقابات
الساخرة، كما يجب أن ندخل في
الاعتراضات الباطلة، وأن نتحاور،
عبر نقادنا القدامى المعاصرين، مع
نقادنا القدامى الأقدمين، مثل نيزار، أو نيوبسين ليميرسييه.

الذوق

ولكن كيف يمكن للمرء أن يشير إلى مجموع المنوعات، وهي
جزء لا يتجزأ من الأخلاق والجمال. كيف يمكن هذا، لاسيما وأن
النقد الكلاسيكي، قد استثمر فيها كل القيم التي لا يستطيع حملها
على القديم؟ ألا فليكن اسم نظام المحرمات هذا «الذوق»، فأي
شيء يمنع الذوق الكلام عنه؟ إنها الأشياء. غير أن الشيء إذا ارتد
فصار خطاباً عقلانياً، فسيشاع بأنه غث: وهذا هو الشيء بلغته

المقننة عن النقد الذي يئز. وإنما لنتهي بذلك إلى تبديل عجيب غير ذي نفع: فالصفحات النادرة للنقد القديم تقوم على التجريد عاماً، بينما أعمال النقد الجديد، فهي على العكس من ذلك، قليلة التجريد، لأنها تعالج الجواهر والأشياء. ويبدو أن هذه الأخيرة ذات تجريد لا إنساني. وبالنسبة نقول إن مايعتبره المحتمل «واقعاً» ليس في الحقيقة سوى ما اعتدنا عليه. وبالتالي، فإن هذا المعتاد عليه هو الذي ينظم ذوق المحتمل. فالتقد، بالنسبة إليه، يجب أن يكون قد صنع لا من الأشياء (لأنها شديدة الثرية)، ولا من الأفكار (لأنها شديدة التجريد)، ولكن من القيم فقط.

هنا يكون الذوق مفيد جداً: إنه خادم مشترك بين الأخلاق والجمال. ويسمح بفتح باب دوار ملائم بين الجميل والمفيد. ذلك أنها قد اختلطت خفية تحت نوع من القياس البسيط. ومهما يكن، فإن لهذا القياس كل القدرة التي يمتلكها الشبح على الهرب: فعندما يعاب على الناقد أنه يبالغ في الكلام عن الجنس، فيجب أن يكون معلوماً أن الكلام عن الجنس مبالغ فيه دائماً: لنتصور لحظة أن الأبطال الكلاسيكيين قد زودوا بعضو تناسلي (أو لم يزودوا)، فإن هذا يعني «إدخال في كل مكان» لنوع من الجنس «اللجوج، والجموح، والوقع».

لم يتم بعد فحص الدور المحدد الذي يستطيع الجنس (وليس الذعر) أن يضطلع به في تصوير الشخصيات. فهذا الدور يتغير بتغير

اتباعنا لفرويد أو لأدليز مثلاً. وماكان لهذا الأمر أن يخطر، ولو للحظة، في ذهن الناقد القديم: إذ ماذا يعرف هو عن فرويد، أو بالأحرى ماذا قرأ من إصدارات «ماذا أعرف»؟

الدوق، في الواقع، منع للكلام. وإذا كان التحليل النفسي مداناً، فليس ذلك لأنه يفكر، ولكن لأنه يتكلم. ولقد يود بعضهم لو أحاله إلى ممارسة طبية بحتة، حينها سيثبت المريض (الذي ليس نحن) على أريكته، وسيشغل به نفسه كما ينشغل بوخر الإبر. ولكن ها هو التحليل النفسي يوسع خطابه ليشمل أعلى درجات الكائن المقدس (الذي نريد أن نكونه) ألا وهو الكاتب. وإن الأمر ليقبل لو وقف التحليل عند كاتب حديث. لكن أن يكون كلاسيكياً! أن يكون راسين، الشاعر الأكثر وضوحاً، والمغرم الأكثر حياة!

إن الصورة التي يرسمها النقد القديم لنفسه عن التحليل النفسي عتيقة بشكل لا يصدق. إنها صورة تقوم على تصنيف قديم للجسم الإنساني. فإنسان النقد القديم مركب من منطقتين تشريحيين: أما الأولى، فعلوية - خارجية إذا صح التعبير: ففيها الرأس، والخلق الجمالي، والمظهر النبيل، وما نستطيع أن نظهره، وما يجب أن نراه. وأما الثانية، فتحتية - داخلية: الجنس (وهو يجب أن لا يسمى)، والفرائز، و«الاندفاعات الغامضة»، و«العضوي»، و«الآليات المغلفة». هنا، يكون الإنسان البدائي والمباشر. وهناك، يكون الكاتب المتطور، والمسيطر عليه. ولقد يقولون، غضباً من عند

أنفسهم: إن التحليل النفسي يوصل، دون وجه حق، الأعلى بالأدنى، والداخل بالخارج. بل إنهم ليقولون أكثر من ذلك، فالتحليل النفسي، كما يبدو لهم، يعطي ميزة مطلقة «للأدنى»، المخبوء. وهذا يصبح، كما يؤكدون، مبدأ «التفسير» «للعلوي» الظاهر. وإن المرء ليغدو، على هذا الأساس، عرضة لعدم التمييز بين «الحصى» و«الأماس». فكيف يمكن تصحيح صورة بلغت من السخف هذا المبلغ؟

أريد أن أبين للنقد القديم مرة إضافية أن التحليل لا يترد بمادة درسه إلى «اللاشعور». فنحن لا يمكننا أن نوجه لما يقدمه من نقد (وإن كان قابلاً للنقاش لأسباب أخرى، بعض منها يتعلق بالتحليل نفسه على وجه الخصوص) التهمة بأنه يجعل من الأدب «مفهوماً سلبياً خطيراً». أما السبب، فلأن الكاتب هو موضوع العمل بالنسبة إلى التحليل النفسي (ويجب أن لانسى أن هذه كلمة خاصة من كلمات لغة التحليل النفسي). وأريد أن أقول، من جهة أخرى، إنه لمن قبيل المصادرة المسبقة أن تضاف قيمة عليا إلى «الفكر الواعي»، في حين يتم التسليم، كشيء مفروغ منه، أن ما قل ثمنه إنما هو «للمباشر والأولي».

ويمكننا أن نقول على كل حال، إن كل هذه التعارضات الجمالية - الأخلاقية بين إنسان عضوي، واندفاعي، وآلي، وهولي، وفظ، وظلامي، إلى آخره، وبين أدب إرادي، وواضح، ونبيل،

ومجيد لتمسكه بمستلزمات التعبير تمسكاً قوياً... إن كل هذه التعارضات غبية، لأن إنسان التحليل النفسي لا يتجزأ هندسياً، ولأن نموذج، على حسب فكرة جاك لاكان، ليس هو نموذج الداخل والخارج، وبصورة أقل أيضاً، ليس نموذج الأعلى والأدنى، ولكنه بالأحرى نموذج للوجه والقوى المتحركين، فلغتها، تحديداً، تغير الأدوار دون توقف، وتقلب السطوح على شيء لا وجود له نهاية أو بداية. ولكن مالفائدة؟ إن جهل النقد القديم بالتحليل النفسي ليلبغ ثخن الأسطورة وصلابتها (وهو بسبب هذا يصل إلى اكتساب شيء من الفتنة): إنه ليس رفضاً، ولكنه استعداد. وهو مدعو أن يعبر الأجيال هادئاً: «سأقول إن مثابة الأدب منذ خمسين سنة، وخاصة في فرنسا، تتجلى في تهديء أولية الغريزة، واللاشعور، والحدس، والإرادة بالمعنى الألماني، أي بما يتعارض مع الذكاء». وإن هذا لم يكتبه ريمون بيكار عام 1965، ولكن كتبه جولييان باندا عام 1927.

4

أقدم إليكم الآن آخر رقابة
للمحتمل النقدي. وكما نتوقع، فإنها
ستذهب بنا نحو اللغة نفسها. إنها
لا تتيح للنقد أن يستخدم بعض
اللغات، بدعوى أن هذه تنتمي إلى
العامة. وتفرض عليه عوضاً عن

الوضوح

ذلك لغة وحيدة، هي لغة «الوضوح».

يعيش مجتمعنا الفرنسي، منذ أمد طويل، «الوضوح». إلا أنه
لا يعيشه نوعاً بسيطاً للإيصال اللغوي، شأنه في هذا شأن صفة
متحركة نستطيع أن نطبقها على لغات عدة. إنه يعيش الوضوح كلاماً
منفصلاً: فالمقصود أن يكتب المرء لغة مقدسة بعينها، تنتمي إلى اللغة
الفرنسية، تماماً كما كتبت الهيروغليفية، والسنسكريتية، ولاتينية
القرون الوسطى. إن هذه اللغة المسماة «الوضوح الفرنسي» هي لغة

سياسية في أصلها. وقد ولدت في الوقت الذي رغبت فيه الطبقات العليا - وبموجب صيرورة إيديولوجية معروفة - أن تجعل من فريدة نغدها لغة عالمية. ولكي تبلغ مرماها هذا، فقد أدخلت في الاعتقاد أن «منطق» اللغة الفرنسية منطق مطلق: إن منطق الفرنسية يتجلى في تقديم الفاعل، ثم الفعل، وأخيراً المفعول. وذلك انطباقاً على نموذج «طبيعي» كما يقولون. ولقد قوضت اللسانيات الحديثة هذه الخرافة: فليست الفرنسية أكثر أو أقل «منطقية» من لغة أخرى.

ولقد نعلم كل عمليات البتر التي أجرتها المؤسسات الكلاسيكية على لغتنا. وما يثير العجب هو أن الفرنسيين يفتخرون باستمرار أن عندهم راسين (رجل الألفي كلمة). ولا يشكون أبداً أن ليس عندهم شاعر كشكسبير، وإنهم ليقاثلون اليوم بحمية سخيفة دفاعاً عن «لغتهم الفرنسية»: فهناك الوقائع الموحية، وتفجير الغزاة الغرباء، والحكم موتاً على بعض الكلمات، ذلك لأنها معدودة في عداد الكلمات غير المرغوب فيها. ولذا، يجب التنظيف دون توقف، بل يجب الكحت، والمنع، والإعدام، والمحافظة. وإذا قلدنا الطريقة الطبية التي يحكم بها النقد القديم على اللغات التي لا تحظى بإعجابه (إنه يصفها «بالمريضة»)، فسنقول ثمة نوع من المرض القومي، سنسميه عناية تثبيت المعنى. ولن يفوتنا ما للماتوسية الكلامية من بشاعة: «يقول الجغرافي بارون إن اللغة في قبائل البابو فقيرة، ولكل قبيلة لغتها ومفرداتها التي تميل إلى الفقر من غير توقف، لأن القوم

يحذفون، بعد كل وفاة، بعض الكلمات دلالة على الحداد⁽¹⁴⁾.
وإنما نعطر باحترام
لغة الكتاب الميتين، ونرفض الكلمات، والمعاني الجديدة التي نهل علينا
من عالم الأفكار: فإشارة الحداد، هنا، تسدّد ضربة للولادة لا
للموت.

تشكل الممنوعات اللغوية جزءاً من حرب صغيرة تشنها طبقات
من المثقفين. وما النقد القديم سوى طبقة بين طبقات أخرى.
«الوضوح الفرنسي» الذي يوصي به، إن هو إلا لهجة مثل أخرى.
بل إنها لهجة عامية خاصة، كتبها مجموعة محدودة من الكتاب،
والنقاد، ومدونو الأخبار، وهم لا يجاؤون من حيث الجوهر، كتابنا
الكلاسيكيين، ولكنهم يجاؤون فقط كلاسيكية كتابنا. ثم إن هذه
اللهجة الماضية لم تكن موسومة بمقتضيات من العقلنة محددة، وإنما
لم تتأثر بغياب متكشف للصور، كما هي حال الكلام الشكلي للمنطق
(هنا فقط يحق لنا أن نتكلم عن الوضوح)، ولكن أثرت فيها مجموعة
من القوالب المعوجة والثقيلة⁽¹⁵⁾. كما أثر فيها تذوق بعض دوائر

(14) E. Baron, Géographie (classe de philosophie, Éd. de L'école, P.83).

(15) نضرب مثلاً: «الموسيقى اللاهوتية: إنها تسقط كل التوقعات، وكل
الزعميات الناشئة عن بعض المؤلفات السابقة، حيث ذهب أورفيو ليكسر
قيثارته». ولقد أتينا بهذا لكي نقول إن مذكرات موريك الجديدة أفضل من
القديمة. (J. Piatier. Le Monde, 6 nov. 1965).

الجملة، وكذلك رفض بعض الكلمات وأبعادها ذعراً أو سخرية،
وكأنها دخيلة جاءت من عوالم أجنبية، أي مشكوك فيها.

ولقد نرى هنا فريقاً محافظاً يهدف أن يتغير شيء في فصل المعجم
اللفظي وتوزيعه: فما أشبه هذا بالهجمة على ذهب الكلام. إن كل
انحياز يأخذ قطعة أرض كلامية. كما يتلقى مثيراً اصطلاحياً يحظر عليه
الخروج منه (للفلسفة حق في استعمال لغتها). ومع ذلك، فإن
الأرض التي أعطيت للنقد لعجيبة: إنها خاصة، لأن الكلمات
الأجنبية لا تستطيع أن تدخل فيها (تماماً كما لو أن للنقد حاجات
مفهومية جد مقتضبة). ولكنه، مع ذلك، يرقى إلى منصب اللغة
العالمية: فهذا العالم، الذي يشكل التيار، إنما هو عالم مزيف: إنه
ليس سوى خصوصية إضافية: فهو عالمي يتوزعه الملاك.

ويمكننا أن نشرح هذه النرجسية اللسانية بشكل آخر:
فـ«اللهجة»، هي لغة الآخر. والآخر (وليس الغير) ليس هو
الذات. وينشأ عن هذا، لدى المرء، إحساس بسمّة المكابدة من
لغته. فما أن نشعر أن الكلام لا ينتمي إلى أمتنا حتى نحكم عليه.
فيكون غير مفيد، وفارغاً، وهادياً، ومستعملاً ليس لأسباب جدية،
ولكن لأسباب تافهة أو منحطة (للتظارف والاكتفاء): وسبيدو،
هكذا، كلام النقد الجديد بالنسبة إلى «الناقد - المستحاة» غريباً وكأنه
«إيديش» (وهذه مقارنة مشكوك فيها على كل حال). ونستطيع أن
نرد على هذا بقولنا: إن لغة «الإيديش» تدرس هي أيضاً. «فلماذا

نقول الأشياء ببساطة؟ وكم مرة سمعنا هذه الجملة؟ ولكن كم مرة أيضاً لم نتسائل من ردها؟ ومن غير أن نتساءل عن السمة السرية الصحية والسعيدة لبعض اللغات الشعبية، هل يمكن للنقد القديم أن يؤكد بأنه لا يمتلك هو أيضاً لغته الملتبسة؟ ولو كنت أنا نفسي ناقداً قديماً، ألم يكن من حقي أن أطلب إلى زملائي أن يكتبوا: «السيد بيروي يكتب الفرنسية جيداً» عوضاً عن: «يجب تمجيد ريشة السيد بيروي التي ونحزتنا ونحزاً مستمراً بالمفاجيء أو بسعادة التعبير». ولربما طلبت بتواضع أيضاً أن نسمي «الغضب» «كل حركة للقلب تجعل اليراع سعيراً وتشحذه برؤوس قاتلة». وماذا علينا إن فكرنا بقلم الكاتب، هذا الذي يخز ونحزاً لطيفاً تارة، ويقتل تارة أخرى؟ إن هذه اللغة لن تكون واضحة، في الواقع، إلا إذا صارت لغة مقبولة.

إن اللغة الأدبية للنقد القديم لاتهمنا في الواقع. فنحن نعلم أننا لانستطيع أن نكتب بطريقة أخرى إلا إذا فكرنا بشكل آخر. ذلك لأن الكتابة تعني تنظيم العالم، كما تعني التفكير (والمرء إذ يتعلم لغة ما، فهذا يعني تعلم كيف يفكر في هذه اللغة). ومادام هذا هكذا، فإنه لمن غير المفيد إذن (ولا أدري لماذا يعاند المحتمل النقدي) أن نسأل الآخر أن يعيد كتابة نفسه إذا لم يقرر أن يعيد التفكير فيها. ولقد نعلم أنكم لاترون في لغة النقد الجديد سوى شواذ في الشكل، غلّقت بتفاهات في العمق: وإنه لمن الممكن فعلاً أن «نوجز» إذا ألغينا النظام الذي يكونها، أي إذا حذفنا الروابط التي يقوم بها معنى

الكلمات: وإذا كان هذا هكذا، فيمكننا حينئذ أن «نترجم» إلى فرنسية كريسال الجيدة: وإذا كان الحال كذلك، فلماذا لاندرد «الأنا الأعلى» الفرويدي إلى «الضمير الأخلاقي» لعلم النفس الكلاسيكي؟ ماذا! أليس سوى هذا؟. نعم، إذا ألغينا كل مابقي.

لاوجود لإعادة الكتابة في الأدب، لأن الكاتب لايملك لغة قبلية يستطيع بها أن يختار التعبير من بين بعض الأنظمة المتجانسة (وهذا لايعني أنه لايبحت عنها بجهده كله). فثمة وضوح في الكتابة، ولكن صلة هذا الوضوح مع «ليل المحيرة» الذي تكلم عنه مالارمي أكبر من صلته مع أي محاكاة معاصرة لفولتين أو لنيزار. فالوضوح ليس صفة من صفات الكتابة، إنه الكتابة نفسها. ويكون منبذ اللحظة التي تتكون الكتابة فيها ككتابة. إنه سعادة الكتابة، وهو كل هذه الرغبة الكائنة فيها.

وبالتأكيد، فإن حدود استقبال الكاتب لتعتبر مشكلة جد عظيمة بالنسبة إليه. غير أنه يختار هذه الحدود على الأقل. فإذا قبل أن تكون ضيقة، فذلك لأن الكتابة، تحديداً، ليست التزام علاقة سهلة، ولا هي وساطة ربط بكل القراء المحتملين. إنها، بالأحرى، إلتزام علاقة صعبة مع لغتنا نفسها: إن للكاتب واجباً تجاه الكلمة التي هي حقيقته، لا تجاه النقد في جريدة «الأمة الفرنسية»، أو في جريدة «اللوموند»، ولذا، فإن «اللهجة» ليست أداة للظهور كما يوحى بعضهم بذلك بسوء نية لاطائل منها. إن «اللهجة» خيال (وهي

تصدم مثله) سيحتاج إليه، في يوم ما، الخطاب الثقافي في مقارنته للغة الاستعارية.

إنني أدافع هنا عن الحق في استخدام اللغة، ولا أدافع عن «لهجتي» الخاصة. وكيف يمكنني أن أتكلم على كل حال؟ ثمة انزعاج عميق (انزعاج في الهوية) لزاء أي تصور يجعل المرء قادراً أن يكون مالكا لبعض الكلام، وأن يدافع عنه كما لو كان سمة من سماته ككائن. فهل أكون أنا قبل لغتي؟ ومن سيكون هذا الأنا، المالك تحديداً لما يجعله مالكا؟ وكيف أستطيع أن أعيش لغتي كما لو أنها صفة بسيطة من صفات شخصي؟ وكيف يمكن الاعتقاد أنني إذا تكلمت، فذلك لأنني موجود؟ ربما كان يمكننا أن نحافظ على هذه الأوهام خارج الأدب. ولكن الأدب تحديداً لا يسمح بهذا. وإن الخطر الذي نمارسونه على اللغات الأخرى، ليس شكلاً من أشكال استبعاد أنفسكم عن الأدب: إنه لم يعد بإمكاننا، ويجب أن لا يكون بإمكاننا كما كان ذلك في زمن سان مارك جيرادان، أن نمثل دور الشرطي على الفن، ثم ندعي الكلام فيه.

5

هذا هو حال المحتمل النقدي في عام 1965 : فالكلام عن أي كتاب يجب أن يكون بـ «موضوعية»، و«ذوق»، و«وضوح». غير أن هذه القواعد ليست من قواعد زماننا. فقد جاءت القاعدتان الأخيرتان من القرن

عمه الرموز

الكلاسيكي، في حين أن الأولى قد جاءت من القرن الوصفي. وهكذا يتشكل جسد من المعايير الشائعة. فهي إما نصف جمالية (جاءت من الجمال الكلاسيكي)، وإما نصف معقولة (جاءت من الفطرة السليمة): وبهذا نكون قد أقمنا باباً دواراً، مطمئناً، بين الفن والعلم. ولقد نعلم أن هذا الباب الدوار يعقينا من أن نكون دائماً في واحد دون الآخر.

ويعبر هذا الالتباس عن نفسه في اقتراح أخير، يبدو أنه قد استحوذ على أكبر فكرة وصائية للنقد القديم. وذلك لكثرة ماتم تناوله

بورع، أي يجب احترام «خصوصية» الأدب. ولقد جُعِلَ هذا الاقتراح آلة حرب أعدت للنقد الجديد. فهو متهم بأنه يقف غير مبالٍ «بما هو الأدب في الأدب»، وبأنه يهدم «الأدب كواقع أصيل». ولقد تكرّر هذا الاقتراح، ولكنه لم يُشرح قط. ومع هذا فله قيمة مسلمة تقول، من غير أن تكون قابلة للطعن: «الأدب هو الأدب».

وهكذا يمكن، بقرار يعلن المحتمل عنه، أن نغضب فجأة من جحود النقد الجديد الذي يقف فاقد الحس مما يحتوي عليه الأدب من فن، وانفعال، وجمال، وإنسانية. ثم يتظاهر بأنه يدعو النقد إلى علم متجدد يدرس موضوع الأدب لذاته، دون أن يكون لغيره من العلوم عليه حق، كالتاريخ، أو الأنثروبولوجيا. ولقد يرى الملاحظ أن هذا التجديد زنج بما فيه الكفاية: غير أننا نعلم أن المصطلحات نفسها قد استخدمها «برينيتير» الذي لام «تين» لأنه أهمل «الجوهر الأدبي» إهمالاً شديداً، أي أهمل «القوانين الخاصة بالجنس».

إن أي محاولة لإنشاء بنية الأعمال الأدبية لتعتبر مشروعاً مهماً. ولقد اهتم بعض الباحثين بهذا، فاتبعوا مناهج لا يفقه عنها النقد القديم بكلمة، وهذا طبيعي، لأن النقد القديم يدعي ملاحظة البنى دون أن يقوم بعمل بنائي (وهذه كلمة تزعج، إذن يجب تطهير اللغة الفرنسية منها). وبما يجب التأكيد عليه، هو أن القراءة يجب أن تكون على مستوى العمل. ولكننا لانرى، من جهة أولى، كيف بعد أن نتخذ الأشكال هيئتها، نستطيع أن نتجنب لقاء مضامين تأتي من

التاريخ أو من علم النفس. وباختصار، كيف نتجنب لقاء هذه «المواضيع الأخرى» التي لا يرغب النقد القديم فيها بأي ثمن. وأما من جهة أخرى، فإن التحليل البنوي للأعمال الأدبية، يكلف أكثر مما نتصور. ذلك لأن التحليل، إلا إذا ثررنا بمحبة حول العمل وخططه، لا يستطيع أن يتم إلا بموجب نماذج منطقية: وبالفعل، فإن خصوصية الأدب لا تستطيع أن تكون بدهية إلا في داخل نظرية عامة للإشارات. فلنكي يمتلك المرء الحق في الدفاع عن القراءة الملزمة للعمل، يجب عليه أن يعرف ماهو المنطق، والتاريخ، وعلم النفس.

ويمكننا أن نقول باختصار، إن على المرء لكي يعيد العمل إلى الأدب، أن يخرج منه تحديداً: وأن يستعين بثقافة أنثروبولوجية. ونحن نشك أن يكون النقد القديم مهيباً لمثل هذا، فالخصوصية بالنسبة إلى هذا النقد، جمالية مجردة. وهو يهدف أن يدافع عنها: فهذا النقد يريد أن يحمي في العمل قيمة مطلقة، لم يلامسها أي من هذه «المواضيع الأخرى» السافلة التي هي التاريخ، أو العمق الأدنى من التحليل النفسي: إن مايريد هذا النقد ليس عملاً مكوناً، ولكنه عمل مجرد نتجنب فيه أي مشاركة للعالم، وأي تحالف غير متكافئ مع الرغبة. وهكذا، يكون نموذج هذه البنيوية العفيفة أخلاقياً بكل بساطة.

لقد وعظ ديميتريوس دي فالير قائلاً: «أما موضوع الإله، فإنه الإله». ونلاحظ أن أقصى طلب للمحتمل النقدي إنما هو من هذا النوع نفسه: «أما موضوع الأدب، فقولوا إنه من الأدب». وليس

هذا الحشو مجاناً. فهم يتظاهرون بادىء ذي بدء أن الكلام عن الأدب ممكن، كما يظهرون أنه بالإمكان جعل الأدب موضوعاً «للكلام». ولكن سريعاً ما ينتهي هذا الكلام. إذ ليس ثمة ما يقال في هذا الموضوع، اللهم إلا إذا قلنا إنه هو هو، وهكذا يفضي المحتمل النقدي بهذا إلى الصمت، أو هي ينتهي إلى بديله، أي إلى الثثرة: محادثة لطيفة. وهذا مقال رومان جاكبسون سابقاً عن تاريخ الأدب في عام 1921.

إن المحتمل النقدي يستطيع أن يتكلم، ولكن بصعوبة. فقد شلته المحرمات التي تلازم «احترام» العمل (إذ ليس العمل بالنسبة إليه، هو الرؤية البعيدة للأدب): فخطط الكلام الرفيع الذي تتركه له المنوعات، لا تسمح له إلا أن يؤكد حق المؤسسات على الكتاب الموقر. أما ما يتجاوز هذا العمل بكلام آخر، فقد أبعد عن نفسه الوسائل المؤدية إليه، لأنه لا يركب ظهر المخاطر.

الصمت، على كل حال، طريقة ينال المرء بها عطلة، فلنسجل إذن، فشل هذا النقد في آخر المطاف. ومادام موضوعه هو الأدب، فقد كان بإمكانه أن يعمل على إنشاء شروط بموجبها يمكن للعمل أن يكون. كما كان بإمكانه أن يخطط، إن لم يكن للعلم، فلتقنية العملية الأدبية على الأقل. ولكنه ترك العناية - والههم - للكتاب أنفسهم، لكي ينفذوا هذا البحث (ولحسن الحظ أنهم، من ملامرهم إلى بلانشو، لم يحرموا أنفسهم ذلك): فهم لم يكفوا عن الاعتراف بأن

اللغة هي مادة الأدب نفسها. وهكذا، فقد تقدموا بطريقةهم نحو الحقيقة الموضوعية لفنهم، وتم القبول، على الأقل، بتحرير النقد - الذي ليس هو العلم ولا يدعيه - بطريقة يقول لنا فيها المعنى الذي يستطيع رجال معاصرون أن يعطوه للمؤلفات مضت. فهل نعتقد أن راسين قد خصنا «بنفسه» في حافية نصه. ولنقل بجدية تامة، ماذا يعني بالنسبة إلينا مسرح «عنيف ولكن عفيف»؟. وماذا يعني أن نقول اليوم «أمير فخور وكريم»؟. أهو فريدة لغوية! إنهم يتحدثون عن بطل «فحل» (من غير أن يسمحو بأي إشارة تدل على جنسه). وإن عبارة كهذه، إذا انتقلت إلى مسرح ساخر، فإنها ستضحك. ولقد يحصل هذا، على كل حال، عندما نقرأها في الرسالة التي وجهها «سوفوكل لراسين»، والتي قامت جيزل، صديقة ألبرتين، بتبسيطها لكي تنال بها شهادتها الدراسية (صفات فحولية).

أما فيما تبقى، فهاذا كانت جيزيل وأندريه تفعلان. ألم تمارسا النقد القديم عندما تكلمتا، فيما يخص راسين، عن «الجنس المأساوي»، وعن «العقدة» (نحن نجد هنا «قوانين الجنس»)، ونجد «طباعاً مكينة»، (انظروا إلى «تماسك المداخلات النفسية»). وقد أشارتا إلى أن مسرحية «أتالي» ليست مأساة غرامية. وقد جاء ذلك منها بالطريقة نفسها التي يُشار بها إلى أن «أندروماك» ليست مأساة وطنية.

إن المعجم النقدي الذي تم باسمه اتهامنا، إنما هو لصبية كانت

قد حضرت شهادتها الدراسية منذ ثلاثة ارباع القرن . ومنذ ذلك الحين، جاء ماركس، وفرويد، ونيثشه . وقد طالب كل من لوسيان لوفيفر، ومارلو بونتي، باستمرار أن يعاد النظر في تاريخ التاريخ، وتاريخ الفلسفة، بشكل يكون فيه موضوع الماضي موضوعاً كلياً. ونحن نتساءل، لماذا لايقوم صوت مماثل لكي يعطي للأدب ذلك الحق نفسه؟

إذا لم نستطع تفسير هذا الصمت وهذا الفشل، فيمكننا أن نقوله بطريقة أخرى. فالنقد القديم ضحية لوضع يعرفه محللوا اللغة معرفة جيدة. ويسمونه «عمه الرموز»⁽¹⁶⁾: إنه يستحيل عليه أن أو أن يدرك عن طريق الرموز، أي يستحيل عليه أن يرى وجود المعاني مع بعضها. وبالنسبة إليه، فإن الوظيفة الرمزية، العامة جداً، هي التي تسمح للبشر ببناء الأفكار، والصور والأعمال. ولكن ما أن يتعدى المرء الاستعمالات العقلانية الضيقة للغة، حتى تضطرب هذه الوظيفة وتتحد، أو تصبح ممنوعة.

يستطيع المرء، بكل تأكيد، أن يتكلم عن العمل الأدبي، بعيداً عن أي مرجع رمزي. ويتعلق هذا بإختيارنا لوجهة النظر، والتي

(16) H. Hécœn et R. Angelergues, Pathologie du langage. (Larouss, 1965, P.32).

يكفي أن نعلن عنها. فإذا أتيج لي أن أعالج أندروماك من منظور عائدات التمثيل، من غير أن أتكلم عن الميدان الواسع للمؤسسات الأدبية التاريخية ولكي أبقى في إطار العمل الفريد، أو إذا أتيج لي أن أعالج مخطوطات بروسست من منظور مادي لما فيها من تشطيط، فإنه ليس من الضروري أن أعتقد أو أن لأعتقد بالطبيعة الرمزية للأعمال الأدبية: ذلك لأن أي مصاب بحبسة لسانية يستطيع أن ينسج سلاسل، أو أن يقوم بأعمال النجارة: ولكن منذ اللحظة التي ندعي فيها معالجة العمل لذاته، وذلك بناء على تكوّنه، فإنه يصبح مستحيلاً علينا أن لانطرح شروطاً ذات أبعاد كبيرة لقراءة رمزية.

هذا مافعله النقد الجديد. ويعلم كل الناس أنه يعمل جهاراً، منطلقاً من الطبيعة الرمزية للأعمال، أو مما يسميه باشلار خلل الصور. ومع ذلك، فإن أحداً لم يفكر، ولو للحظة واحدة أثناء الخصومة معه، أن المقصود هي الرموز، وأن ماكان يجب أن يدور حوله الحديث، في النتيجة، هي الحريات والحدود المتعلقة بنقد رمزي واضح. فلقد تم التأكيد على الحقوق الشمولية للرسالة، دون أن يُترك المجال أبداً لسماح أن الرمز يستطيع أن يمتلك حقوقه هو الآخر. وربما لاتكون هذه الحقوق هي بعض الحريات المتبقية التي ترغب الرسالة في تركها له. ونريد أن نسأل، هل تقصي الرسالة الرمز، أم أنها تسمح به؟ وهل المعنى في العمل حرفي أم رمزي - أم

هو أيضاً، كما يقول رامبو، «حرفي في كل الاتجاهات»؟⁽¹⁷⁾. وحول هذا الأمر تدور رحي النقاش.

ترتبط كل التحليلات حول راسين بمنطق رمزي. وذلك كما تم الإعلان عنه في مقدمة الكتاب. وكان يجب إما أن نعترض على وجود هذا المنطق في كليته أو على إمكانية وجوده (وربما كان لهذا الأمر الفضل في رفع سوية النقاش)، وإما أن نظهر أن مؤلف كتاب «حول راسين» قد طبق القواعد تطبيقاً سيئاً. وإذ ذلك، ربما يذهب إلى الاعتراف إرادياً بهذا، خاصة بعد أن مرت سنتان على نشر الكتاب، ومرت ست سنوات على تأليفه. ولعمري، إن هذا لدرس فريد في القراءة إذ تعترض على كل تفاصيل الكتاب، دون أن تفكر لحظة بأننا لاحظنا المشروع في مجمله، أي بكل بساطة دون أن نلاحظ: المعنى.

لعل النقد القديم يتذكر «سلفه العتيق». فقد تكلم عنه أوميريدان، الذي وضع، للمرة الأولى أمام فيلم، فلم يرَ من كل المشهد سوى الدجاجة التي عبرت ساحة القرية.

إنه لمن غير المعقول أن نصنع من الرسالة امبراطورية مطلقة، ثم نعترض بعد ذلك دون تحذير، على كل رمز من الرموز باسم مبدأ لم

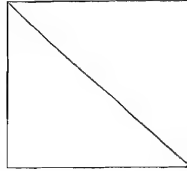
(17) كتب رامبو إلى أمه، التي لم تفهم معنى قوله: «فصل في جهنم» قائلاً: «لقد أردت أن أقول ما يقوله هذا، حرفياً، وفي كل الاتجاهات». (الأعمال الكاملة، بليار. ص(856)).

يخلق له . فهل تعيبون على صيني (لأن لغة النقد الجديد تبدو لكم غريبة) أن يرتكب أخطاء في الفرنسية عندما يتكلم الصينية؟ .
ولكن لماذا كل هذا الصمم إزاء الرموز، لماذا كل عمه الرموز هذا؟ وما الأمر الذي في الرمز يهدد؟ وإذا علمنا أن أساس الكتاب يقوم على تعددية الرموز، فلماذا يضع المعنى المتعدد الكلام في خطر من حول الكتاب؟ ولماذا تقوم هذه التساؤلات؟ .

القسم الثاني

1

ليس هناك ما هو أكثر أهمية بالنسبة إلى مجتمع ما من تصنيف هذا المجتمع للغاية. ولذا، فإن أي تغيير في هذا التصنيف أو أي زحزحة للكلام، يعني إحداث ثورة. ولقد تحدثت معالم الكلاسيكية الفرنسية خلال



قرنين بانفصال كتاباتها، وهرميتها، وثباتها. بينما نجد أن الثورة الرومنطيقية قد وهبت نفسها لكي تشيع الفوضى في التصنيف.

ويمكن أن نلاحظ أنه منذ مئة عام، أي منذ مالارميه، من غير شك، ثمة تعديل يجري على أمكنة أدبنا: إن الوظيفة المضاعفة، الشعرية والنقدية للكتابة هي التي تتعارض، وتنفذ، وتتوحد⁽¹⁸⁾.

(18) جيرار جينيت: «البلاغة والتعليم في القرن العشرين». مجلة (Annales)، عام 1966.

إذ، ليس الكتاب وحدهم هم الذين يقومون بالنقد، ولكن أعمالهم غالباً ما تدلي بشروط ولادته (بروست) أو غيبته (بلانشو). فثمة لغة واحدة تميل إلى المرور في كل مكان في الأدب، وخلف الأدب أيضاً.

ولقد أصيب الكتاب بانقلاب، أحدثه كاتبه. فلم يعد هناك شاعر أو روائي. لم يعد هناك شيء سوى الكتابة⁽¹⁹⁾.

(19) «إن الشعر، والروايات، والقصص القصيرة، آثار عنيفة وفريدة، وهي في ذلك لا تختلف أحداً، أو تقريباً لا تختلف أحداً، فماذا نصنع بالشعر والقصص؟ لم يبق شيء سوى الكتابة».

(من مقدمة كتاب: «الحصى» لكاتبه ج. م. ج. لوكليزيو).

2

أزمة التعليق

ألا فلننظر. ثمة حركة تكاملية،
الناقد فيها يصبح كاتباً. غير أنه يجب
أن نعلم أن المرء إذا رغب أن يصبح
كاتباً، فهذا لا يعني ادعاء لقيمة ما،
لأنه قصد تكمن الكينونة من خلفه.

وأما نحن، فبماذا يهمننا تمجيد المرء
لكونه روائياً، أو شاعراً، أو كاتباً يكتب المقالات، أو مدوناً يدون
الأخبار؟ إن تعريف الكاتب لا يكون بالدور الذي يقوم به، أو بالقيمة
التي تُعطى له. ولكنه يتحدد فقط، بنوع من أنواع وعي الكلام.
وبهذا يكون كاتباً، أي عندما تُحدث اللغة له مشكلة، تجعله يغوص
فيها إلى الأعماق، فلا يقف عندها أداة أو جالاً.

لقد ولدت إذن كتب نقدية. وقدمت نفسها للقراءة، واتبعت
الطرق نفسها التي تتبعها الأعمال الأدبية. مع العلم أن مؤلفيها نقاد

وليسوا كتاباً. وإذا كان للنقد الجديد بعض الوجود الواقعي، فإنه يكمن هنا: إنه ليس في وحدة مناهجه، ولا في التبجح، الذي يقول عنه بعضهم بارتياح إن النقد الجديد يمنح منه دعمه، ولكن في توحد الفعل النقدي، هذا الفعل الذي تأكد، من الآن فصاعداً، كفعل كتابي ممتلئ، بعيداً عن أعذار العلم والمؤسسات.

ثمة أسطورة مستهلكة تقول: «المبدع الرائع، والخدام المتواضع، كلاهما ضروري، في كل مكانه، إلى آخره». ولقد فصلت هذه الأسطورة بين الناقد والكاتب قديماً. غير أنها عابداً ليجتمعا مجدداً في الشرط الصعب نفسه، وإزاء موضع واحد، هو: اللغة.

إنه لمن الصعوبة بمكان، أن يُضرب صفح عن هذا الانتهاك الأخير. ومع ذلك، فإن جهد المرء وإن بلغ ما بلغ في التصدي له، فلربما يكون تحاوزه قد تم وانتهى. وإذ نقول هذا، فثمة تعديل جديد يلوح في الأفق: إن «عبور الكتابة»⁽²⁰⁾، سمة من سمات عصرنا. والنقد ليس هو الذي بدأ هذا العبور، بل إن الذي بدأه هو الخطاب الثقافي كله. وإننا لنجد، منذ أربعة قرون خلت، أن مؤسس النظام إيناس دي لويال، وهو أكثر من بذل جهداً في سبيل البلاغة، قد ترك في كتابه «تمارين روحية» نموذجاً لخطاب مأساوي، وأسند بيانه، إلى

(20) فيليب سولير: «دائقي عبور الكتابة» مجلة Tel Quel، عدد (23). خريف (1965).

قوة أخرى غير القياس أو التجريد. وقد استطاع جورج بتاي يفكر ثاقب أن يسجل هذا⁽²¹⁾. ومنذ ذلك الوقت، وعبر كتاب مثل «ساد» أو «نيتشه»، أصبحنا نرى أن قواعد المقال الثقافي قد أخذت، بشكل دوري، تُحترق (بكلا معنيي هذه الكلمة). وقد غدا هذا الأمر موضع اهتمام اليوم. فالفكر قد عبر إلى منطق آخر. وهو يلامس منطقة «التجربة الداخلية». كما وأن الحقيقة الواحدة ذاتها تبحث عن نفسها. ذلك لأنها مشتركة بين الكلام، سواء أكانت خيالية، أم شعرية، أم استدلالية. وهي من الآن فصاعداً تمثل حقيقة الكلام نفسه.

عندما يتكلم جاك لاكان⁽²²⁾، فإنه يبذل التجريد الكلاسيكي للمفاهيم بالانتساع الكلي للصورة داخل حقل الكلام، بحيث لاتفصل الصورة بين المثل والكلام، وتبقى هي الحقيقة نفسها. ونجد كلود ليفي ستروس، في الطرف الآخر لهذا، يقطع صلته مع المفهوم العادي «للتطور». فهو حين يتكلم عن «النبيء والمطبوخ»،

(21) ... وفي هذه النقطة، نرى المعنى الثاني لكلمة مأساة: إنها الإدارة المضافة إلى الخطاب، لكي لا يقف عند حدود العبارة، فيضطر إلى الشعور ببريد الريح، ويكون عارياً... وإنا لنرى بهذا الخصوص أن ثمة خطاً كلاسيكياً إذ تنسب تمارين القديس إتيانك للمنهج الاستدلالي... «.

(«التجارب الداخلية»: غاليلار، ص(26)، عام (1954).

(22) كان ذلك في محاضراته التي ألقاها في: (L'École Pratique des Hautes Études).

يقترح بلاغة جديدة للمتغيرات. فيلَبْزَم هكذا بمسؤولية للشكل قلما اعتدنا أن نجدها في كتب العلوم الإنسانية. ونرى من خلال هذا، أن ثمة تحولاً لارِيب فيه، يجري الآن في الكلام الاستدلالي. وهذا التحول، هو نفسه الذي يقارب بين الناقد والكاتب: فنحن ندخل في أزمة عامة للتعليق. وهذه الأزمة لاتقل في أهميتها عن تلك التي طبعت الانتقال من العصر الوسيط إلى عصر النهضة. وإننا لنلاحظ أنها متصلة بقضيتنا.

لا يمكن، في الواقع، تحاشي هذه الأزمة، وذلك منذ اللحظة التي نكتشف فيها - أو نعيد فيها الاكتشاف - الطبيعة الرمزية للغة. أو إذا كنا نفضل، فيمكن أن نقول منذ اللحظة التي نكتشف فيها الطبيعة اللسانية للرمز، وهذا مايحدث اليوم في عمل يقترن فيه علم النفس بالبنوية. فلقد رأى المجتمع الكلاسيكي البرجوازي، خلال فترة زمنية طويلة، أداة أو زخرفاً. أما نحن الآن، فنرى فيه إشارة وحقيقة. وهذا يعني، أن كل ماتلامسه اللغة هو، بشكل من الأشكال، عرضة للنقاش: الفلسفة، والعلوم الإنسانية، والأدب. هذا هو الجدل الذي يجب أن يوضع النقد الأدبي فيه اليوم. وهذا هو الرهان حول الموضوع الذي يشكل النقد فيه جزءاً من أجزائه. ولنا أن نتساءل فنقول ماهي علاقات العمل باللغة؟ وإذا كان العمل رمزياً، فعلى أي من قواعد القراءة نعتمد؟ وهل يمكن إقامة علم للرموز المكتوبة؟ وهل يمكن للغة النقد نفسها أن تكون رمزية؟.

3

اللغة بصيغة الجمع

لقد عالج عالم الاجتماع آلان جيرار،
والكاتب موريس بلانشو «اليوميات
الخاصة»، من حيث هي جنس،
بشكلين مختلفين⁽²³⁾.

إن اليوميات بالنسبة إلى واحد منها،
هي التعبير عن عدد من الظروف
الاجتماعية، والعائلية، والمهنية، إلى آخره. وهي، بالنسبة إلى الآخر،
شكل قلق لتأخير الوحدة الحتمية للكتابة. وهذا يعني إذن، أن
اليوميات معنيين على الأقل. كما يعني أن كل واحد من المعنيين
واضح، لأنه متناسك. وهذا حدث مألوف، يمكن أن نجد له في

(23) آلان جيرار: «يوميات خاصة» (ب. ي. ف. 1963. موريس بلانشو:
«الفضاء الأدبي» (غاليبار. ص(20) عام (1955).

تاريخ النقد، وفي حقيقة القراءات ألف مثل يمكن لكتاب واحد أن يوحى به: وتشهد هذه الأحداث على الأقل أن الكتاب يحتوي على عدد من المعاني.

إن كل عصر من العصور يعتقد فعلاً، أنه يمتلك المعنى الشرعي للكتاب، ولكن يكفي أن نوسع التاريخ قليلاً لكي يتحول هذا المعنى المفرد إلى المعنى المتعدد، ولكي ينتقل الكتاب من انغلاقه إلى انفتاحه⁽²⁴⁾.

إن تعريف الكتاب نفسه يتغير: فهو إذا كف عن أن يكون حدثاً تاريخياً، فإنه يصبح حدثاً أنثروبولوجياً. وذلك لأن التاريخ، أياً كان، لا يستطيع أن يستهلكه. وهذا يعني إذن أن تعددية المعنى لاتأتي من رؤية نسبية، توحى بها الأخلاق الإنسانية. فالتعددية لاتشير إلى ميل المجتمع نحو الخطأ، ولكنها تشير إلى استعداد الكتاب نحو الانفتاح. والكتاب يمتلك في بنيته، وليس عجزاً من أولئك الذين يقرأونه، عدداً من المعاني في الوقت نفسه. وهو بهذا يعتبر رمزياً: وليس الرمز صورة، إنه تعددية المعاني نفسها⁽²⁵⁾.

(24) انظر كتاب أميرتو إكو: «العمل المفتوح». (سوي. 1965).

(25) إنني لا أجهل أن لكلمة رمز معنى آخر في السيميولوجيا (علم الإشارة)، حيث تكون الأنظمة الرمزية، على العكس من ذلك، هي الأنظمة التي يستطيع فيها شكل واحد أن يكون مقترحا. فمع كل وحدة تعبيرية تناسب =

إن الرمز ثابت. أما الوعي الذي يملكه المجتمع، والحقوق التي يعطيها له، فهي التي تتغير. ولقد اعترف بالحرية الرمزية في العصر الوسيط. وتم تنظيمها، كما نرى ذلك، في نظرية المعاني الأربعة⁽²⁶⁾. ونرى، على العكس من ذلك، أن المجتمع الكلاسيكي قد تكيف معها تكيفاً سيئاً: فلقد تجاهلها، أو هو حظرها، كما فعل مع بقاياها المعاصرة: إن تاريخ حرية الرموز تاريخ عنيف في الغالب. ولهذا الأمر معناه أيضاً: إذ إن حظر الرموز لا يتم دون عقوبة. ومهما يكن من أمر، فإن المشكلة هنا هي مشكلة مؤسساتية، وليست مشكلة بنوية إذا صح القول: فمهما فكرت المجتمعات، ومهما اتخذت من قرارات، فإن الكتاب سيتقدمها، وسيتجاوزها شكلاً تملأه المعاني

== وحدة مضمونية تماثلها. ويجدر بنا أن نعلم أن هذه الأنظمة الإشارية تقف إزاء أنظمة أخرى تناظرها، هي الأنظمة السيميائية، مثل (اللغة، الحلم) حيث يكون ضرورياً «طرح شكلين مختلفين: الأول للتعبير، والثاني للمضنون، دون أن يكون بينهما تلاؤم من نوع ماء (نيكولا ريفيه: «اللسانيات العامة اليوم». أوروبا، السوسولوجيا (1964). ص (287)). وبالطبع، فإن رموز الكتاب، بموجب هذا التعريف، تنتمي إلى السيميائية وليس إلى الرمزية، ومع ذلك، فلإن ساحتفظ هنا، مؤقتاً، بكلمة «رمز» ضمن المعنى العام الذي يعطيه بكار لها، وهو معنى يتناسب مع الآراء التالية: («ثمة رمز عندما تنتج اللغة إشارات على درجة من التركيب يكون المعنى فيه غير قانع بالإشارة إلى شيء»، فيشير إلى معنى آخر لا يمكن الوصول إليه من غير توجيهه الخاص». عن كتاب: «في التأويل، دراسات حول فرويد»، منشورات سوي، عام 1965، ص 25).

بالمعنى الحرفي، والمجازي، والأخلاقي، والتأويلي، وبالطبع، ثمة عمر ثابت وموجه نحو المعنى التأويلي. (26)

المحتملة والتاريخية شيئاً فشيئاً: إن الكتاب «خالد»، ليس لأنه يفرض على البشر المختلفين معنى واحداً، ولكن لأنه يوحى بمعان مختلفة للإنسان واحد، يتكلم دائماً اللغة الرمزية نفسها عبر الأزمنة المتعددة: فالكتاب يقترح، والإنسان يتصرف.

إن كل قارئ يعرف هذا، إذا أراد أن لا يستسلم لإرهاب الرقابات الأدبية. أفلا يشعر أنه يعقد صلة مع خارج النص، كما لو أن اللغة الأولى للكتاب قد طورت فيه كلمات أخرى وعلمته أن يتكلم لغة ثانية؟ وهذا مانسميه حلم. غير أن للحلم طرقته كما يقول باشلار. وإن هذه الطرق هي التي رسمتها لغة الكتاب الثانية أمام الكلمة. والأدب هو ثبر غور للاسم: ولنا في بروست مثلاً يضرب. فقد ولد عالماً بأكمله من بعض الأصوات: *Guermante*. وفي الواقع، فإن الكاتب يعتقد دائماً أن الإشارات ليست قسرية، وأن الاسم ملكية طبيعية للشيء: إن الكتاب يقفون في صف كراتيل، وليس في صف إرموجين. ولما كان الحال كذلك، فقد وجب علينا أن نقرأ كما نكتب: ومنذ ذلك الحين، فقد أخذنا في «تمجيد» الأدب (و«مجد» تعني أظهره في جوهره)، وذلك لأنه إذا لم يكن للكلمات سوى معنى واحد، هو معنى القاموس، وإذا لم تأت لغة ثانية لتضع الاضطراب في «يقينيات اللغة» وتحررها، فلن يكون ثمة أدب⁽²⁷⁾.

(27) كتب مالا رميه إلى فرنسيس فيليبفرغان قائلاً: «إذا كنت قد فهمتك، فإنك =

ولهذا السبب فإن قواعد القراءة هي غير قواعد الأدب. ولكن قواعد الإيماء هي قواعد لسانية، وليست قواعد فقهية⁽²⁸⁾.

إن مهمة فقه اللغة تكمن في تثبيت المعنى الحرفي للعبارة. ولكن ليس لفقه اللغة أي سيطرة على المعاني الثواني. ونجد، على العكس من ذلك، أن اللسانيات تعمل، لا على تقليص غموض اللغة، ولكن على فهمه. بل، ويمكن أن نقول إن اللسانيات تعمل على تأسيس مشروعيتها.

إن ما يعرفه الشعراء، منذ زمن طويل، باسم الإيماء والاستدعاء، قد بدأ اللساني يقاربه، فأعطى بذلك لثموجات المعنى مقاماً علمياً. ولقد ذهب رومان جاكسون مذهباً ركز فيه على الغموض المؤسس في الرسالة الشعرية (الأدبية). وهذا يعني أن

== تعطيني عبوة الشاعر في الخلق إلى النقص في الأداة التي يستخدمها. ألا إن لغة ملائمة فرضياً لترجمة أفكار المرء، هي لغة تلغي الأديب، والذي سيسمى بناء على هذا، السيد المجهول.

(Cit  Par J.P. Ricord, L'Univers imaginaire de Mallarm . Seuil,) (1961, P.576).

(28) لقد عاب بعضهم حديثاً، على النقد الجديد، أنه يعرقل مهمة المربي. وهي مهمة تقوم في جوهرها، كما يبدو، على تعليم القراءة. ولقد نعلم أن البلاغة القديمة قد وضعت طموحها في تعليم الكتابة: فلقد أعطت قواعد للإبداع (للمحاكاة)، وليس للاستقبال. ويمكن للمرء أن يسأل نفسه فعلاً: اليس في عزل القواعد على هذه الصورة تقليل من شأن القراءة. والحكمة تقول: القراءة الجيدة، هي كتابة ممكنة جيدة، بمعنى أنها كتابة تتبع الرمز.

الغموض لا يصدر عن نظرة جمالية تقوم على حريات التأويل، وبشكل أقل عن رقابة أخلاقية تنبه إلى مخاطره. ولكنه يصدر عن نظرة يمكننا صياغتها بمصطلحات النظام: فاللغة الرمزية التي تنتمي إليها الأعمال الأدبية لغة متعددة في بنيتها. وقد صنع نظامها بطريقة تجعل الكلام (العمل الأدبي) المولد عنها يمتلك معاني متعددة. وقد قام هذا الوضع من قبل في اللغة الصرفة، وهي لغة تحتوي على كثير من الشكوك، كما يحلو لنا أن نقول ذلك - وهذا ما أخذ اللساني يعتني به⁽²⁹⁾. ومع ذلك، فإن الغموض في لغة الممارسة لا يعتبر شيئاً إزاء الغموض في اللغة الأدبية. فالأول يعود إلى السياق الذي يظهر فيه: فثمة شيء خارج الجملة الأكثر غموضاً كالمحيط، والإيماء، والذكرى، وهذه كلها تخبرنا عن كيفية الفهم. هذا إذا كنا نريد أن نستعمل الأخبار المحملة بها لنقلها إلينا استعمالاً عملياً: إن المحتمل يصنع معنى واضحاً.

ولكن لانجد شيئاً من كل هذا مع العمل الأدبي: لأن العمل، بالنسبة إلينا، كائن من غير احتمال، ولربما يعطيه هذا الأمر أفضل تعريف له: فالعمل لا يحيط به، ولا يشير إليه، ولا يحميه أي وضع.

(29) انظر كتاب: آ. ج. غريماس «دروس في الدلالة» وصلى الأخص الفصل (6)

الذي يدور حول التائيل في الخطاب

Cours ronéoty Pé à l'école nor male Superieure de Saint - Claude, 1964

وليس ثمة حياة عملية هنا لتخبرنا عن المعنى الذي يجب أن يعطى له، فالعمل الأدبي يحتوي دائماً على شيء للاستشهاد. والغموض فيه يكون أكثر صفاء. وهو مهما كان مطمئناً، فإنه يمتلك شيئاً من اقتضاب اللعبة البيثياريّة⁽³⁰⁾، وشيئاً من الكلمات الملائمة للنظام الأول (اللعبة البيثياريّة لا شرود فيها) ومفتوحة مع ذلك على عدة معاني. والسبب لأن النطق بها قد جرى خارج أي سياق ماعدا سياق الغموض نفسه: وهذا يعني أن العمل الأدبي يكون في سياق من النبوة دائم. فإذا أضفت سياقي الخاص إلى القراءة التي أقوم بها، فمن المؤكد أنني أستطيع أن أختصر غموضه (وهذا مايجري عادة). ولكن هذا السياق المتغير، إذ كان يؤلف العمل، فإنه لا يعثر عليه ثانية: فالعمل لا يستطيع أن يعترض على المعنى الذي أعطيه إياه، مادمت أنا شخصياً أخضع للنظام الرمزي الذي يؤسسه، أي منذ اللحظة التي أقبل فيها أن أسجل قراءاتي في فضاء الرموز. ولكنه أيضاً لا يستطيع أن يتحقق من هوية هذا المعنى، لأن النظام الثاني للعمل ذو طبيعة محدودة، وليس مكتسباً بالتقادم: فهو يرسم أحجاماً للمعنى، ولا يرسم خطوطاً، ويؤسس غموضاً متعددًا، ولا يؤسس معنى واحداً.

(30) الألعاب البيثياريّة (مهرجان إغريقي كان يقام في دولف مرة كل أربع سنوات، تكريماً للإله أبولو).

وعندما ينسحب العمل خارج أي سياق، فإنه يهب نفسه لهذا
للسر: إنه يصبح أمام ذلك الذي يكتبه أو يقرأه مسألة مطروحة على
اللغة. فيجدد المرء مبرراتها، ويقف على حدودها. وبهذا، يجعل
العمل من نفسه مستودعاً يقوم فيه تحقيق هائل للكلمات،
لا يتوقف⁽³¹⁾.

ولقد نرغب أن لا يكون الرمز سوى خاصة من خواص
التخيل. غير أن للرمز أيضاً وظيفة نقدية، وموضوع نقده هو اللغة
نفسها. وهكذا، إن إزاء نقد العقل الذي منحنا إياه الفلسفة، يمكننا
أن نصيف نقد اللغة. وهذا هو الأدب نفسه.

وإذا كان صحيحاً أن العمل الأدبي يحتوي في بنيته على معنى
متعدد، فلقد صار حقاً عليه أن يجعلنا نفكر بوجود خطابين مختلفين
فيه: ذلك لأننا نستطيع، من جهة، توجيه العناية إلى المعاني التي
يغطيها، أو إلى المعنى الفارغ الذي يحمل كل المعاني. كما نستطيع،
من جهة أخرى، أن نوجه العناية نحو واحد من هذه المعاني. ويجب
أن لا يتم خلط هذين الخطابين بأي حال من الأحوال، فهما لا يعملان
على موضوع واحد، ولا يميلان إلى مصداقية واحدة.

(31) تحقيق الكاتب في اللغة: لقد استخلص هذا الموضوع وعالجه مارت روبير
بخصوص كافكا (ونجد ذلك أيضاً في كافكا) منشورات غاليلار (1960).

ويمكن أن نقترح اسم «علم الأدب» (أو الكتابة) ليكون اسماً لهذا الخطاب العام. إذ إن موضوعه ليس هذا المعنى المحدد، ولكنه التعددية التي تقوم في العمل. ويمكن أيضاً أن نقترح اسم «النقد الأدبي» ليكون اسماً لذلك الخطاب الثاني الذي يجعل قصده المعلن في المعنى الخاص الذي يعطيه للعمل، ومع ذلك، فإن هذا التمييز لا يكفي. فإعطاء المعنى قد يكون مكتوباً أو صامتاً. ولما كان الأمر كذلك، فقد وجب الفصل بين قراءة العمل ونقده: ونلاحظ أن الأول مباشر، وأن الثاني تتوسطه لغة وسيطة، هي الكتابة النقدية.

ثمة كلمات ثلاث، يجب أن نجوب أرجاءها لكي نجدل حول العمل تاجه اللغوي: العلم، والنقد، والقراءة.

4

علم الأدب

إننا نملك تاريخاً للأدب، وليس علماً للأدب، ولعل السبب يكمن، من غير ريب، في أننا لم نستطع حتى الآن، أن نعرف طبيعة موضوع الأدب معرفة كاملة، مع أنه موضوع مكتوب. وانطلاقاً من اللحظة التي

نريد أن نقبل فيها أن العمل إنما صنع من الكتابة (ونستنتج النتائج)، فإن علماً للأدب يصبح ممكناً. وإن موضوع هذا العلم (إذا وجد في يوم من الأيام) لا يمكن أن يكون في فرض معنى من المعاني على العمل، وذلك لكي نرفض باسمه المعاني الأخرى: إن هذا يعرض العلم نفسه إلى مخاطر (وهذا ما هو معمول به حتى اللحظة الراهنة). وكذلك، لا يمكن لهذا العلم أن يكون علماً للمضامين (فتلك لا يستطيع أن يسيطر عليها سوى علم التاريخ الأكثر دقة)، ولكن

يمكنه أن يكون علماً لشروط المضمون، أي للأشكال: حينئذ، سيهتم هذا العلم بتغيرات المعنى المحدثة. وإذا كان في إمكاننا، فسنقول إنه سيهتم بالمعاني الممكنة التي تحدثها الأعمال: وهولن يؤول الرموز، ولكنه سيؤول تعددها فقط. وباختصار، فإن هدف هذا العلم لن يكون معاني العمل الممتلئة، ولكن سيكون، على العكس من ذلك، المعنى الفارغ الذي يحملها جميعاً.

سيكون نموذج هذا العلم لسانياً، ولما كانت اللسانيات قد وضعت موضعاً يستحيل عليها فيه أن تسيطر على كل الجمل في لغة من اللغات، فإن اللساني يقبل أن يقيم نموذجاً فرضياً للوصف. وانطلاقاً من هذا النموذج يستطيع أن يشرح كيف تلد جمل اللغة⁽³²⁾.

ومهما تكن التصوييات التي سنجرها، فإننا لانجد أي سبب يحول دون محاولة تطبيق هذا النموذج على الأعمال الأدبية: فهذه الأعمال تشبه جملًا كبيرة، مشتقة من اللغة العامة للرموز، وذلك عبر عدد من التحويلات المنضبطة، أو بشكل عام، عبر نوع من المنطق الدال. وهذا مايجب وصفه. ويمكننا القول بشكل آخر، إن اللسانيات تستطيع أن تعطي للأدب هذا النموذج التوليدي. فهو مبدأ كل العلوم. وماكان ذلك كذلك إلا لأن المقصود هو أن نجعل

(32) افكر بأعمال تشومسكي، ومقترحات القواعد التحويلية.

ببعض القواعد لكي نشرح بعض النتائج. وسيكون موضوع علم الأدب إذن، ليس في السؤال لماذا يجب أن يقبل هذا المعنى، وليس في السؤال لماذا كان مقبولاً (فهذا الأمر، نكرر مرة أخرى، يخص التاريخ)، ولكن في السؤال لماذا هو مقبول. ولن يكون هذا بموجب ماتقتضيه القواعد الفقهية للأدب، ولكن بموجب ماتقتضيه القواعد اللسانية للرمز. وإننا لنجد هنا، مهمة اللساني الحديث وقد اندرجت في سلم علم الخطاب. وهذه مهمة من شأنها أن تصف قاعدية الحمل، وليس معناها، وسنجهتد، بالطريقة نفسها، لكي نجد مفهوم «القبول» للمؤلفات الأدبية، وليس لمعانيها، ومن أجل هذا، فإننا لن نصف مجموع المعاني الممكنة وكأنها نظام ثابت، ولكن سنصنفها آثاراً لتنظيم هائل و«فاعل» (وذلك لأن مفهوم القبول يسمح بصناعة المؤلفات)، يمتد اتساعه من الكاتب إلى المجتمع.

وأقول، رداً على «ملكة اللسان» التي أفصح عنها هامبولدت وتشومسكي، إنه ربما كان في الإنسان «ملكة أدبية»، وطاقة كلامية، لاعلاقة لها بالعبقريّة، لأنها لم تصنع من الاستلهم، أو من الإرادة الشخصية، ولكن من قواعد تكدست بعيداً عن المؤلف. وهذه القواعد ليست صوراً، ولا أفكاراً، أو أبياتاً ينفثها صوت ربة الفن الأسطوري في سمع الكاتب. إنها منطق الرموز الكبير، وهي الأشكال الفارغة العظمى. إنها هي التي تسمح بالكلام وتنفيذ العمل.

ويمكن للمرء أن يتصور التضحيات التي يكلفنا بها مثل هذا العلم إزاء من نحب، أو نعتقد أننا نحبه في الأدب عندما نتكلم عنه، ألا وهو الكاتب. ومع ذلك، فكيف يمكن للعلم أن يتكلم عن كاتب من الكتاب؟. إن علم الأدب لا يستطيع أن ينسب العمل الأدبي، وإن كان هذا العمل مهوراً بتوقيع كاتبه، إلا إلى الأسطورة. وذلك لأن الكاتب ليس هو العمل⁽³³⁾. ونحن نميل على وجه العموم، في يومنا هذا على الأقل، إلى الاعتقاد بأن الكاتب يستطيع أن يدعي المعنى المتضمن في عمله. كما يستطيع أن يحدد هذا المعنى بأنه المعنى الشرعي، وقد نشأ عن هذا الأمر سؤال غير معقول، توجه به الناقد إلى الكاتب، أي إلى حياته، وآثار مقاصده. وذلك لكي يؤكد لنا بنفسه ما يعنيه كتابه: فثمة رغبة ملحة لجعل الميت يتكلم، أو لكي تتكلم بدائله، وزمنه، والجنس، والمعجم اللفظي، وكل المعاصرين له، أي الملاك، كناية لحقه الماضي على إبداعه. بل ثمة ما هو أكثر من ذلك: إنه ليطلب منا أن ننتظر موت الكاتب لكي نتمكن من معالجته بموضوعية. وإننا لثرى في هذا الأمر انقلاباً عجبياً: إذ كيف يُعالج الكتاب كما لو أنه حدث واقعي في اللحظة التي يصبح فيها أسطورياً.

(33) الأسطورة كلام ليس له مرسل حقيقي كما يبدو. إنها لتضطلع بالمضمون، ولتطالب بالمعنى، وهذا يعني «إذن أنها لغز»، انظر كتاب ل. سيباغ: «الأسطورة نظام ورسالة» (العصور الحديثة، مارس، 1965).

إن للموت أهمية أخرى: إنه يجعل توقيع الكاتب غير واقعي، ويجعل العمل أسطورياً: فلقد تهلك حقيقة الطرف النادرة عبثاً لكي تنضم إلى حقيقة الرموز⁽³⁴⁾. وهذا ما يعرفه الشعور الشعبي: إننا لانذهب لكي نرى مسرحية من أعمال «راسين»، ولكن لكي نرى «راسين» بالطريقة التي نرى فيها فيلماً من أفلام «الوسترن». وكأننا في هذا نحفظ كما نشاء، ببعض الوقت من الأسبوع، لكي نتغذى قليلاً بجوهر أسطورة عظيمة. وكذلك، فإننا لن نذهب لكي نرى «فيدر»، ولكن لكي نرى «اليرما في فيدر». وهذا الحال يشبه حالنا عندما سنقرأ سوفوكل، وفرويد، وهولديرلان، وكيركارد في مسرحية «أوديب»، أو في «أنيجون». وإننا لفي الحقيقة ماكثون، لأننا منذ اللحظة التي نرفض أن يستولي الميت فيها على الحي، نجد الزلزلة الأسطورية للمعاني. فحين يمحو الموت توقيع الكاتب، فإنه يؤسس حقيقة الكتاب، الذي هو لغز. ومن غير ريب، فإن الكتاب «المتحضر» لا يمكنه أن يعالج كما لو أنه أسطورة، بالمعنى الانتولوجي للكلمة. ولكن الفرق يلتصق بالرسالة التصاقاً أقل من التصاقه بالجوهر. فلقد كتبت مؤلفاتنا، ومايفرض عليها المعنى بالإكراه هو أن

(34) «إن ما يجعل حكم الأجيال القادمة على الفرد أكثر عدلاً من حكم المعاصرين له، يكمن في الموت. فالمرء لا يتطور على هواه إلا بعد موته...». (انظر كتاب ف. كافكا): «تحضيرات لعريس في الريف». منشورات غاليليا. ص (366) عام (1957).

الأسطورة الشفوية لا تستطيع أن تعرف: فما ينتظرنا هو أسطورة الكتابة، ولن يكون موضوعها مؤلفات معينة، أي مسجلة في صيرورة حتمية، يكون الشخص (المؤلف) هو أصلها، ولكن في مؤلفات مرت عبرها الكتابة الأسطورية العظمى، حيث الإنسانية تجرب معانيها، أي رغباتها.

يجب القبول إذن، بتوزيع موضوعات علم الأدب. فالكتاب والكتاب ليسا سوى منطلق لتحليل أفقه اللغة: ولا يمكن أن يقوم علم دانتى، أو شيكسبيرى، أو راسيني، ولكن يمكن أن يقوم علم للخطاب فقط. وستكون لهذا العلم أرضان واسعتان، وذلك يتعلق بالإشارات التي يعالجها. أما الأولى، فتحتوي على الإشارات الدنيا للجملة. ومثلها في ذلك العصور القديمة، وظواهر اللغة الإيحائية، و«الشذوذات الدلالية»⁽³⁵⁾. ويمكننا أن نقول باختصار، إنها تتمثل في كل سمات اللغة الأدبية عموماً. وأما الثانية، فتحتوي على الإشارات العليا للجملة، وعلى أقسام الخطاب، حيث يمكننا أن نستخلص بنية قصصية، أو رسالة شعرية، أو نصاً استدلالياً⁽³⁶⁾.

(35) انظر تودوروف: «الشذوذات الدلالية»، مجلة: Langage.

(36) لقد أعطى التحليل البنوي مكاناً لبحوث تمهيدية في الوقت الراهن، وإن مركز دراسات الاتصالات الجماهيرية في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا يقوم بها أيضاً. وذلك انطلاقاً من أعمال: ف. بروب، وكلود ليفي ستروس. ويمكننا، فيما يخص «الرسالة الشعرية»، أن نرى جاكسون في كتابه =

تقوم وحدات الخطاب، كبيرها وصغيرها، ضمن علاقة اندماجية (كما هو حال الجذر بالنسبة للكلمة، وجمال الكلمة بالنسبة للجملة). ولكنها تتشكل في مستويات مستقلة عن الوصف. وإذا أخذ النص على هذا الشكل، فإنه سيمنح نفسه إلى تحاليل أكيدة. ولكن من البدهي أن هذه التحليلات ستدع خارج نطاقها راسباً هائلاً. وسيتناسب هذا الراسب جيداً مع مانراه اليوم أساسياً في العمل (العبقرية الشخصية، الفن، الإنسانية)، اللهم إلا إذا لم نجد فائدة وجباً بالنسبة إلى حقيقة الأساطير.

إن الموضوعية، وهي مطلب هذا العلم الجديد للأدب، لن تتجه إلى العمل المباشر (الذي يصدر عن التاريخ الأدبي أو عن فقه اللغة)، ولكن إلى معقوليته. ولقد أسس علم الأصوات موضوعية للمعنى الصوتي (وليس فقط للمعنى المادي) دون أن يرفض التحقيقات التجريبية للصوتيات. وثمة موضوعية للرمز على غرار هذا، وهي تختلف اختلافاً بيناً عن الموضوعية الضرورية لإنشاء

= «دراسات في اللسانيات العامة». (منشورات مبنوي. الفصل الثاني. عام 1963)، وكذلك يمكننا أن نرى نيقولا ريفه في «التحليل البيوي للشعر» (مجلة اللسانيات عدد 2/ عام 1963)، يمكننا أن نرى كلود ليفي ستروس ورومان جاكسون في «القطط لشارل بودلير» (L'Hamme, II, 2, 1966)، ويمكن أن نرى جان كوهين في كتابه «بنية اللغة الشعرية» وهو من منشورات فلانماريون، عام 1966.

الأدب. وإذا تأملنا، فسنرى أن الموضوع يقدم للجوهر ضوابطه، ويغفل ضوابط المعنى: «فقواعد» العمل ليست هي اللهجة التي كتب فيها. وإن موضوعية العلم الجديد توجه عنايتها إلى القواعد الثانية، وليس إلى الأولى. ولذا، فإن العلم الجديد لن يهتم بالعمل وجوداً، ولكن سينصب اهتمامه عليه فهماً، كما كان في الماضي وكما هو بالخاص: وسيكون المعقول، في هذه الحالة، هو ينبوع موضوعيته.

ثمة فكرة، يجب إذن، أن نقول لها وداعاً، فهي ترى أن في استطاعة علم الأدب أن يعلمنا المعنى الذي يتحتم إعطاؤه للعمل: غير أن العلم لن يعطي أي معنى، ولن يسعى للعثور عليه. ولكنه، وإن لم يكن كذلك، فإنه يصف المنطق الذي تولدت المعاني بموجبه. ويقوم وصفه لها بطريقة يقبلها منطق البشر الرمزي. ويشبه حاله في هذا حال جملة اللغة الفرنسية التي يقبلها «الحس اللساني» للفرنسيين. وإذا كان هذا هكذا، فأمامنا طريق طويل علينا أن نقطعه، من غير ريب، من قبل أن نحوز على لسانيات تختص بالخطاب. وأنا أقصد في هذا علماً حقيقياً للأدب يتلاءم مع الطبيعة الفعلية لموضوعه.

وإذا كانت اللسانيات تستطيع أن تمد لنا للعون يداً، فإنه ليس في مقدورها، وحدها، أن تحل القضايا التي تطرحها عليها هذه المواضيع الجديدة المكونة من أقسام الخطاب ومن المعاني المضاعفة. إنها لتحتاج من التاريخ عوناً. فهو يقول لها خبر المدة، وهي، لأنها في

الغالب واسعة، فإن القوانين الثواني تمكث فيها (مثل قوانين البلاغة). واللسانيات تحتاج إلى الأنثروبولوجيا، فهي تسمح لها بمقارنات تحديثها، ودمج متابع تقيمه، ويوصف للمنطق العام للدوال.

5

ليس النقد هو العلم، فهذا يعالج المعاني، وذلك يتتبعها. غير أن النقد يحتل مكاناً وسطاً بين العلم والقراءة. فهو يعطي الكلام المجرّد لغة، ويعطي اللغة الأسطورية كلاماً. وهي لغة صنع العمل منها،

النقد

وعليها تقوم المعالجة العلمية.

إن علاقة النقد بالعمل هي علاقة المعنى بالشكل ولا يستطيع الناقد أن يزعم أنه «يترجم» العمل، ولا يستطيع، خصوصاً، أن يجعله أكثر وضوحاً. وإن كل ما يستطيع أن يفعله هو أن «يوّلد» معنى يشتقه من الشكل. فالشكل هو العمل. فإذا قرأ «فتاة مينوس»، وباسيفاي»، فدوره ليس في أن يقرر أن المقصود هو «فيدر» (ففقهاء اللغة يفعلون هذا جيداً)، ولكن في أن يتصور شبكة من المعاني،

تأخذ مكانها فيه مثل الجهنمية، وموضوع الشمس، ويكون ذلك حسب مقتضيات منطقية، سنعود إليها على الفور.

إن النقد يشطر المعاني. ويأتي بلغة ثانية فيجعلها تحوم فوق لغة العمل الأولى، أي أنه ينسق بين الإشارات. والمقصود باختصار، هو إجراء تشويه. وذلك لأن العمل، من جهة أولى، لا يهب نفسه أبداً إلى انعكاس مجرد (فهو ليس شيئاً مرآوياً كالفتاحة أو العلبة). ومن جهة أخرى فإن التشويه نفسه عملية تحويلية «مراقبة». وتخضع كل هذه الأمور إلى مقتضيات بصرية: فما يعكسه العمل، عليه أن يحول كاملاً. وهو لا يحول شيئاً إلا ويتبع فيه بعض القوانين. ثم إنه يحول دائماً باتجاه واحد. وهذه هي لوازم النقد الثلاثة.

لا يستطيع الناقد أن يرمي القول على عواهنه⁽³⁷⁾. ومع ذلك، فإن الرقيب على أقواله ليس هو الخوف الأخلاقي من «الهديان». أولاً، لأنه يترك للآخرين العناية غير المشرفة لكي يحسموا حسماً قاطعاً بين العقل واللاعقل، وذلك في العصر نفسه الذي أصبحت فيه القسمة بينها مرفوضة⁽³⁸⁾ ثم ثانياً، لأن الحق في «الهديان» قد افتتحه

(37) هذا اتهام قذف به ريمون بيكار النقد الجديد.

(38) هل يجب التذكير بأن الجنون تاريخاً - وأن هذا التاريخ لم ينته بعد؟ انظر كتاب ميشيل فوكو: الجنون واللاعقل، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي. منشورات بلون. عام 1961.

الأدب منذ لوتريامون على الأقل، ولأن النقد يستطيع أن يدخل في الهديان مدخل قوة مدفوعاً بحوافز شعرية. ولا ينقصه إلا القليل لكي يعلن عن ذلك. ويمكن القول أخيراً، إن الهديات اليوم هي، في بعض المرات، حقائق الغد: ألم يظهر «تين» هاذياً بالنسبة إلى كل من «بولو»، و«جورج بلان»، و«برينيتير»؟ لا، فالناقد إذا التزم بقول شيء (وليس أي شيء)، فهذا يعني أنه يعطي للكلام (كلام المؤلف وكلامه الخاص) وظيفة دالة. كما يعني أن التشويه الذي طبع به العمل (وليس ثمة أحد في العالم يستطيع أن يفصله عنه) إنما تقوده المقتضيات الشكلية للمعنى: فنحن لانصنع المعنى اعتباراً (وإذا ارتبتم، فحاولوا): فليست رقابة النقد هي معنى العمل، وإنما هي معنى مايقوله فيه.

أما المقتضى الأول، فيُلزم المرء أن يرى أن كل ما في العمل دال: فالقواعد لا تكون موصوفة جيداً إذا لم تستطع كل الجمل أن تجدد فيها شرطها. وكذلك، فإن نظام المعنى ليعتبر ناقصاً، إذا لم يستطع الكلام جميعاً أن يتنظم فيه، وأن يتخذ منه مكاناً جيداً: وإلا فما معنى أن تكون سمة من السمات شديدة البروز، وأن لا يكون الوصف جيداً.

إن هذه القاعدة الشمولية، التي يعرفها اللسانيون جيداً، ذات بعد آخر، وهو بعد لا يدانيه نوع المراقبة الإحصائية التي أريد لها، كما يبدو، أن تكون على الناقد لزاماً. وإضافة إلى هذا فثمة رأي عنيد، يدعى بنموذج العلوم الفيزيائية، جاء ليهمس له أنه لا يستطيع أن

يأخذ من العمل سوى عناصر متواترة، ومتكررة. وهو إلا يفعل فسيقع في إثم «التعميمات المتعسفة» و«التقديرات الاستقرائية الضالة». وستقولون له لا يمكنك أن تعالج معالجة «العموميات» أوضاعاً نجدها فقط في مسرحيتين أو ثلاث من مسرحيات راسين المأساوية. وإذا كان هذا هكذا، فيجب التذكير مرة أخرى، أن المعنى لا يلد، بنيوياً، من التكرار، ولكن من الاختلاف. ونضرب على ذلك مثلاً بكلمة نادرة: إن الكلمة النادرة، منذ اللحظة التي تصبح فيها أسيرة ضمن نظام تحكمه الإقصاءات والعلاقات، فإنها تعني كما تعني أي كلمة متواترة: فإذا أخذنا كلمة ولتكن «باوبا»، ووضعناها في اللغة الفرنسية، فإنها لن تحمل معنى أكثر أو معنى أقل مما تحمله كلمة «صديق». ولذا، فإن لكشف الحساب عن وحدات دالة أهميته، وثمة قسم من أقسام اللسانيات يعني بذلك. غير أن هذا يضيء المعلومة وليس المعنى. وهو من وجهة نظر نقدية لا يقود إلا إلى طريق مسدود. وذلك لأنه منذ اللحظة التي يتم فيها تعريف أهمية مفهوم من المفاهيم، أو إذا شئنا، فدرجة الإقناع لسمة من السمات عن طريق عدد من مصادقات ورودها، فيجب أن يكون القرار منهجياً بشأن هذا العدد: وإني لأتساءل، انطلاقاً من أي عدد للمسرحيات التراجيدية يحق لي أن «أعمم» وضعاً من الأوضاع جاء عند راسين؟ أهى خمس، أم ست، أم عشرة؟ وهل عليّ أن أتجاوز عدداً وسطاً لكي تكون السمة ذات أهمية، ولكي يبرز المعنى؟ ثم ماذا

عليّ أن أفعل بالكلمات النادرة؟ هل أتخلص منها بوضعها تحت الاسم الحسيّ «للشواذ» و«للانزياحات»؟ ألا إن كثيراً من هذا العبث يسمح علم الدلالة بتجنبه.

إن مايجب قوله هو أن مصطلح «التعميم» لايشير في نفسه إلى عملية كمية (كان نستدل على حقيقة السمة من عدد مصادقات ورودها)، ولكن إلى عملية نوعية (كإدخال أي كلمة، وإن كانت نادرة، في مجموع عام من العلاقات). ومن المؤكد أن الصورة وحدها لاتصنع المتخيل⁽³⁹⁾. ولكن المتخيل لا يستطيع أن يصف نفسه من غير هذه الصورة، مهما بلغت ضعفاً وقراءة، ومن غير الـ «هذا» الذي لاينهدم لهذه الصورة.

إن لتعميمات اللغة النقدية سمة تمتد على مساحة من العلاقات يشكل التقييم جزءاً منها، وليس جزءاً من عدد المصادقات المادية لورود هذا التقييم: فالعبارة تستطيع أن لاتتشكل إلا مرة واحدة في العمل كله. ومع ذلك، فإنها تستطيع، بتأثير عدد من التحويلات التي تحدد بدقة الواقعة البنيوية، أن تكون حاضرة «في كل مكان» و«دائماً»⁽⁴⁰⁾.

ولهذه التحويلات مقتضياتها أيضاً: إنها مقتضيات المنطق

(39) R. Picard, op. Cit, P 43.

(40) المرجع السابق. ص 19.

الرمزي. ولهذا، فقد عمدوا إلى مواجهة «هذيان» النقد الجديد بـ«القواعد الأولية للتفكير العلمي، أو للتفكير المفصلي بكل بساطة».

وإنه لأمر سخيف، إذ ثمة منطق للدال. ومن المؤكد أنه غير معروف جيداً، وليس من السهولة بمكان أن يعرف المرء إلى أي نوع من أنواع «المعرفة» ينتمي. غير أننا، على الأقل، نستطيع أن نقاربه، تماماً كما يفعل علم النفس والبنوية لإزاءه. وإننا لنعرف أيضاً أننا لانستطيع أن نتكلم عن الرموز خبط عشواء. وكذلك، فإننا نمتلك - وإن كان مؤقتاً - بعض النماذج التي تسمح بشرح نعرف منه نوع المصادر التي صدرت عنها السلاسل الرمزية. ويقع على هذه النماذج عبء الحماية من الدهشة، التي نفسها مدهشة، والتي يعاني النقد القديم منها حين يرى تقارباً بين الخائن والسم، بين الجليد والنار. ولقد أعلن كل من علم النفس والبلاغة في الوقت نفسه عن هذه الأشكال التحويلية.

فمنها مثلاً: الإبدال (التشبيه)، الحذف (الإضمار)، الكثافة (الجناس)، النقل (الكناية)، النفي (قلب المعنى)، وما يبحث النقد عنه، هي هذه التحويلات المنتظمة وغير المشكوك فيها، والتي تتناول سلاسل ممتدة (العصفور، الطير، الزهرة، النار، الأسهم النارية، المروحة، الفراشة، الراقصة، عند مالارمي). وهذه كلها تسمح بإقامة علاقات بعيدة ولكنها شرعية (النهر الكبير هاديء والشجرة خريفية). وتخترق العمل من خلال هذه العلامات وحدة تتسع أكثر فأكثر، بدءاً عن أي شكل من أشكال القراءة «الهاذية». فهل يظن

ظان أن هذه العلاقات سهلة؟ إننا لانظن أنها أكثر سهولة من علاقات
الشعر نفسه.

إن الكتاب عالم، والناقد يكابد إزاءه من شروط الكلام مايكابه
الكتاب إزاء العالم، وهنا نصل إلى ثالث مقتضيات النقد. فالتشويه
الذي يطبع به الناقد موضوعه موجه دائماً، مثله في ذلك مثل الكاتب
في إحداث تشويه. ويجب على التشويه أن يسير في اتجاه واحد، فما
هو هذا الاتجاه؟ هل هو اتجاه «الذاتية» التي جعلوا منها للنقد الجديد
قضية القضايا؟.

إننا نفهم عادة أن النقد «الذاتي» خطاب متروك تماماً إلى فطنة
«الذات». فهي لاتعبر الموضوع أي اهتمام. ونفترض أنها (وذلك
لكي نرهقها) مقتصرة على التعبير الفوضوي، وعلى ثثرة المشاعر
الفردية، ويمكننا أن نرد على هذا الزعم، بأن الذاتية المنظمة ذاتية
مثقفة (تنتمي إلى الثقافة)، وتخضع لمقتضيات عظمى، وهذه
المقتضيات هي نفسها ناشئة عن رموز العمل. وربما كان لمثل هذه
الذاتية حظ في مقارنة الموضوع الأدبي أعظم من موضوعية جاهلة،
عمياء، ومنغلقة على نفسها، وتحتجب خلف الأدب كاختفائها خلف
طبيعة. ولكن، والحق يقال، ليس هذا هو المقصود تماماً: فالنقد
ليس هو العلم. ففي النقد، يجب أن لانقيم تعارضاً بين الموضوع
والذات، ولكن بين الموضوع ومحموله. وسنقول بشكل آخر إن النقد
يواجه موضوعاً ليس هو العمل، ولكنه لغته الخاصة، فأبي علاقة

يستطيع الناقد أن يقيّمها مع اللغة؟ نعتقد أنه يجب البحث في هذا الجانب لتحديد ذاتية الناقد.

إن النقد الكلاسيكي يشكل اعتقاداً ساذجاً بأن الذات امتلاء، وأن العلاقة بين الذات واللغة هي علاقة بين مضمون وتعبير. غير أن الالتفات إلى الخطاب الرمزي يقود، كما يبدو، إلى اعتقاد مخالف: فالذات ليست امتلاء فردياً، يحق أو لا يحق لنا أن نفرعها في اللغة (وذلك بحسب «الجنس» الذي نختاره)، ولكنها على العكس من ذلك، تشكل فراغاً من حوله ينسج الكاتب كلاماً التحويل فيه غير محدود (داخل في سلسلة تحويلية)، وبشكل تدل فيه كل كتابة «لاتكذب»، ليس على الصفات الداخلية للذات، ولكن على غياب الذات نفسها⁽⁴¹⁾. فاللغة ليست محمول الذات التي لاتعبر أو التي تستخدم في التعبير. إن اللغة هي الذات⁽⁴²⁾. ويبدو لي (ولا أعتقد أني الوحيد الذي يفكر في هذا) أن هذا هو ما يحدد الأدب بدقة: فإذا المقصود فقط هو التعبير عبر صور (كما لو أننا نعصر ليمونة) عن ذوات ومواضيع استوت في امتلائها، فما فائدة الأدب؟ إن أي خطاب سيء

(41) نعرف هنا على صدى من أصداء تعاليم الدكتور «لاكان» في حلقاته الدراسية في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا.

(42) يقول ريمون بيكار: «ليس هناك أمر ذاتي سوى الأمر الذي لا يجب» (ذكر سابقاً، ص 13). وهذا إقصاء سريع لعلاقات الذات باللغة، ولكن «مفكرين» آخرين غير بيكار يصنعون من هذا الأمر قضية صعبة للغاية.

النية يكفي في هذا.

يهتم الرمز بضرورة الإشارة دون كلل إلى «لأشيء» «الأنا» الذي أكونه. فإذا ما أضاف الناقد لغته إلى لغة الكاتب، ورموزه إلى رموز العمل، فإنه «لأيشوّه» الموضوع لكي يعبر عن نفسه فيه، ولا يصنع منه محمولاً لشخصيته بالذات. إنه يعيد إنتاج إشارة الأعمال نفسها، كما لو كان إشارة منفصلة ومتنوعة. فرسالة هذه الأعمال التي تتكرر إلى ما لا نهاية ليست هي هذه «الذاتية»، ولكنها الاختلاط نفسه بين الذات واللغة، وذلك بطريقة يقول فيها النقد والعمل دائماً: «أنا الأدب»، وبهذا لن يعلن الأدب أبداً عبر صوتيهما إلا عن غياب الذات.

إن النقد قراءة عميقة (أو هو أيضاً: قراءة جانبية). وهو يكتشف في العمل معقولاً معيناً. وإنه في هذا، والحق يقال، ليفكك تأويلاً ويشارك فيه. ومع ذلك، فإن مايتك النقد ستره، لا يمكن أن يكون هو المعنى (لأن المعنى يتراجع دون توقف حتى يصل إلى فراغ الذات). ولقد يكون فقط سلسلة من الرموز والعلاقات المتجانسة: إن «المعنى» الذي يعطيه النقد للعمل، وله الحق في ذلك، ليس في نهاية الأمر سوى إزهار للرموز التي تصنع العمل. وعندما يستخلص الناقد من كلمتي «العصفور» و«المروحة» المستخدمتين عند مالارمي «معنى» مشتركاً هو «الذهاب والإياب»، أو «الافتراض»، فإنه لا يدل بهذا على الحقيقة النهائية للصورة، وإنما يدل فقط على صورة جديدة

هي نفسها معلقة. وما كان لهذا أن يكون إلا لأن النقد ليس ترجمة ولكن لأنه تلميح وتعبير تحليلي. ولذا، فهو لا يستطيع أن يزعم أنه وجد «عمق» العمل. فهذا العمق هو الذات نفسها، أي إنه «الغياب»: وعلى هذا، فكل استعارة إنما هي إشارة بلا عمق. وهذا المعنى البعيد هو ما تدل عليه السيرة الرمزية في تكاثرها: والنقاد لا يستطيع إلا أن يتابع استعارات العمل، لا أن يقلصها. ونقول، لمرة إضافية، إنه إذا كان في العمل معنى «خفي» و«موضوعي»، فإن الرمز ليس إلا تورية، والأدب ليس إلا قناعاً تنكرياً، والنقد ليس إلا فقهاً للغة. وإنه لمن العقم أن يؤق بالعمل إلى الوضوح المحض. وإذا صير الأمر إلى هذا، فلن يبقى فوراً ثمة ما يقال. وبهذا تصبح وظيفة العمل إغلاق شفاه أولئك الذين يقرأونه. ولكن الأمر يكون أقل عبثاً بقليل عندما يبحث المرء في العمل عما يقوله العمل من غير أن يقوله. وكذلك أن يفترض أن للعمل سرّاً نهائياً، إذا ما اكتشف فلن يكون هناك ما يمكن إضافته. ومهما قلنا عن العمل، فإن اللغة تبقى فيه دائماً، وكذلك الذات، و«الغياب»، «تماماً كما كان في لحظته الأولى».

إن معيار الخطاب النقدي يكمن في سداه. وكذلك الحال في الموسيقى. فإذا كان سلم التوزيع جيد الإحكام، فإن هذا لا يعني أنه سلم «حقيقي». ذلك لأن حقيقة الغناء تتعلق بدقة الآراء في نهاية الأمر، وإن الدقة إنما تكمن في تألف الأنغام أو تناغمها. وإذا كان هذا

هكذا، فإن الناقد لكي يكون حقيقياً، فعليه أن يكون سديداً، وأن يجرب إعادة الإنتاج بلغته الخاصة. ولا يكون ذلك كذلك إلا بإخراج «روحي دقيق»⁽⁴³⁾. وأما إذا أخطأ في تقدير الشروط الرمزية تحديداً، فإنه لا يستطيع أن يحترم العمل.

ثمة طريقتان تتساويان ظهوراً، يفوّت المرء بهما الرمز على نفسه. أما الأولى، فسرّعة. وهي تقضي بإنكار الرمز، ودفع كل الجانِب الدال في العمل نحو تسطّيحات تجعل منه أدباً غير صحيح، أو يغلقه في طريق مسدود من الشروح الزائفة. وأما الطريقة الثانية، فتقع على العكس من هذا تماماً. فهي تقضي بتأويل الرمز تأويلاً علمياً: إنها تعلن، من جهة، أن العمل يهب نفسه للتفكيك (أي إلى مانعروف به أنه رمزي)، ولكنها، من جهة ثانية، إذ تقود هذا التفكيك، تستخدم فيه كلاماً حرفي الطابع، من غير عمق، ولارشع، وتتجل مهمته في إيقاف التشبيه القائم في العمل إيقافاً تاماً. فهي تمتلك بذلك «حقيقتها» في هذه الوقفة: وتمثل هذا النموذج الأعمال النقدية الرمزية ذات القصد العلمي (أي الذي يقوم على علم الاجتماع أو على التحليل النفسي). ونجد في الحالين أن التباين القسري للغات، وللعمل، وللنقد، هو الذي يفوّت الرمز. فالرغبة في اختزال الرمز

(43) يقول مالارميه في المقدمة: «إن ضربة زهر، لن تلغي المصادقة أبداً.. الأعمال الكاملة. منشورات بلياد، ص455».

تعاذل في مبالغتها عناد من لا يرى سوى الرسالة.

«يجب أن يذهب الرمز بحثاً عن الرمز»، كما يجب أن تتكلم لغة، ما أوتيت وسعها، عن لغة أخرى: وهكذا، تحترم رسالة العمل. وإن هذه الدورة التي تعيد الناقد للأدب، ليست عبثاً. إنها تسمح بمقاومة تهديدتين معاً: فالكلام عن عمل ما يعرض المرء فعلاً أن يسكب كلاماً من غير جدوى، سواء كان ثرثرة، أم صمتاً. أو هو يعرضه أن يقول كلاماً تشيئياً يجمد المدلول الذي يعتقد أنه عثر عليه تحت رسالة نهائية، فالكلام السديد في النقد لا يكون ممكناً إلا إذا تطابقت مسؤولية «المؤول» تجاه العمل مع مسؤولية الناقد تجاه كلامه الخاص.

يبقى الناقد، من غير حول ولا قوة، تجاه علم الأدب، وإن كان يستشفه. والسبب، لأنه لا يستطيع أن يمتلك لغة كما يمتلك شيئاً أو أداة: «إنه ذلك الرجل الذي لا يعرف على أي حد يجب أن يقف من علم الأدب». وعندما يأتي إلى الناقد من يعرف له هذا العلم بأنه «عرض» محض (وليس تفسيراً)، فإنه سيجد نفسه منفصلاً عنه أيضاً: فما يعرضه هو اللغة نفسها، وليس موضوعها. ومع ذلك، فإن هذه المسافة ليست كلها خاسرة، لاسيما إذا كانت تسمح للنقد أن يطور ما يحتاجه العلم تحديداً. وهذا ما يمكن أن نسميه «السخرية». فالسخرية ليست شيئاً آخر سوى سؤال تطرحه اللغة

على اللغة⁽⁴⁴⁾.

لقد اعتدنا أن نعطي الرمز أفقاً دينياً أو شعرياً، فمنعنا ذلك من ملاحظة التهكم في الرموز، كما منعنا من ملاحظة تلك الطريقة التي تطرح اللغة فيها للمناقشة عبر المبالغات الظاهرة، والمعلنة للغة. فإزاء تهكم فولتير الهزيل، إذ هو نتاج نرسيبي للغة جد واثقة بنفسها، نستطيع أن نتصور تهكماً آخر. ونسميه الباروك. لأننا لانجد تسمية أفضل. وسبب هذه التسمية لأن الباروك يتلاعب بالأشكال وليس بالكائنات، ولأنه يفتح اللغة ولا يقلصها⁽⁴⁵⁾. فلماذا يمنع التهكم عن النقد؟ مع العلم أنه ربما يكون الكلام الجدي الوحيد الذي ترك له. وذلك على اعتبار أن وضع اللغة والعلم لم ينشأ بعد -

(44) مادامت ثمة علاقة بين الناقد والروائي، فإن سخرية الناقد (إزاء لغته الخاصة كموضوع للإبداع) لا تختلف اختلافاً أساساً عن التهكم أو عن الدعاية التي تطيح بطابعها، كما يرى لوكاتش، كتاباً مثل روينيه جيرار، ول. غولدمان، وتؤثر في الطريقة التي يتجاوز الروائي بها وعي أبطاله. (انظر غولدمان «مدخل إلى قضايا علم اجتماع الرواية»، معهد علم الاجتماع، بروكسيل 1963، ص/229). وإنه لمن غير المفيد أن نقول إن التهكم (أو التهكم الذاتي) لم يلاحظ قط أعداء النقد الجديد.

(45) يحتوي المذهب الغنفوري دأئياً على عنصر انعكاس، بالمعنى المتجاوز للتاريخ. فعبر أصوات تستطيع أن تتغير جداً، وتتراوح بين الخطابة واللعب البسيط، نجد أن الصورة المبالغ فيها تتضمن انعكاساً على اللغة حيث يمتحن الجدي: (سيفيرو سور دوي: «جوغونفورا» مجلة Tel Quel).

وهذا ما يبدو عليه الحال اليوم أيضاً. ويظهر أن التهكم هو المعطى المباشر للنقد: ليس في رؤية الحقيقة، حسب كلام كافكا، ولكن في أن يكونها⁽⁴⁶⁾. ويكون ذلك بشكل يعطينا الحق لنسأله ليس: «اجعلني أعتقد بما تقول»، ولكن أكثر أيضاً: «اجعلني أعتقد بقرارك في قوله».

(46) «لا يستطيع كل الناس أن يروا الحقيقة، ولكن يمكن لكل الناس أن يكونوها» ف. كافكا. ذكره مارت روبير في مرجع سابق، ص 80.

6

بقي وهم أخير، يجب التخلص منه :
إن الناقد لا يستطيع، في أي شيء من
الأشياء، أن ينصب نفسه بديلاً عن
القارئ. وإذا كان ذلك كذلك،
فإنه لمن العبث أن يستخلص لنفسه
فائدة - أو أن نطلب منه هذا - حين

القراءة

يعبر لقراءة الآخرين صوتاً مهماً جل جلاله. وكذلك الحال، حين
يجعل من نفسه قارئاً يسند إليه القراء الآخرون مهمة التعبير عن
مشاعرهم الخاصة، بسبب معرفته وحكمه. ولا يغير من هذا الأمر
شيئاً إذا صور أيضاً حقوق الجماعة على العمل. ولكن لماذا؟ إننا إذا
عرّفنا الناقد بأنه قارئ يكتب، فهذا يعني أن هذا القارئ سيلتقي
بوسيط خطير: هو الكتابة.

وإذا كان هذا هكذا، فإن الكتابة، بشكل ما، تهشيم للعالم

(الكتاب). وإعادة خلقه. ولنفكر، هنا، جيداً بالطريقة العميقة والدقيقة كما هي العادة، التي نظم بها العصر الوسيط العلاقات بين الكتاب (الكنز العتيق)، وأولئك الذين تحملوا أمانة اقتياد هذه المادة المطلقة (باحترام بالغ) عبر الكلام الجديد. أما نحن اليوم، فلا نعرف سوى المؤرخ والناقد (ويريدون منا، على غير حق أيضاً، أن نخلط بينهما).

لقد أقام العصر الوسيط حول الكتاب أربع وظائف متميزة: «الناسخ» (وهو الذي ينسخ دون إضافة). و«المصنف» (وهو الذي لا يضيف من أشياءه شيئاً أبداً). و«الشارح» (وهو الذي لا يتدخل من تلقاء نفسه في النص المنسوخ إلا ليجعله مدرَكاً). وأخيراً، «المؤلف» (وهو الذي يعطي أفكاره الخاصة، معتمداً على سلطات أخرى).

إن مثل هذا النظام لمقام بوضوح لغاية واحدة، وهي الإخلاص للنص القديم. إذ هو النص الوحيد المعترف به (وهل يمكن أن نتصور احتراماً أكبر من احترام العصر الوسيط لأرسطو أو بريسبان). ومع ذلك، فإن مثل هذا النظام ينتج «تأويلاً» للقديم سارعت الحداثة برفضه. وإنه ليبدو لنقدنا الموضوعي «هاذياً» تماماً. ذلك، لأن الرؤية النقدية تبدأ «بالمصنف» نفسه: إذ ليس من الضروري أن يضيف المرء من عنده شيئاً على النص لكي «يشوّه»: يكفي أن يسرده، أي أن يفككه. وهكذا يلد معقول جديد مباشر. ويصبح هذا المولود مقبولاً إلى حد ما. فهو ليس أقل بناء من الأول.

والناقد ليس شيئاً آخر سوى «الشارح». ولكنه بدلاً من هذه المهمة تماماً (وهذا يكفي لعرضه): فهو، من جهة أولى، مرسل، يقود مجدداً مادة مضى العهد بها (وهذه المادة كثير ما احتاج إليها: ألم يكن راسين، في نهاية الأمر، مديناً بشيء ما لجورج بوليه⁽⁴⁷⁾)، وفرلين لجان بيير ريشار؟). وهو، من جهة ثانية، عامل. فهو يعيد توزيع عناصر العمل مجدداً، ويشكل يكسبه نوعاً من الذكاء، أي يكسبه نوعاً من المسافة.

وثمة انفصال آخر بين القارئ والناقد: فبينما نحن لانعرف كيف يكلم القارئ كتاباً، نجد أن الناقد مضطر أن يتبع «لهجة» معينة. ولا يمكن لهذه اللهجة إلا أن تكون ذات صبغة تأكيدية. وكذلك، فإن الناقد يستطيع أن يشك بنفسه، وأن يتألم بألف شكل وقد ينصب هذا على نقاط غير محسوسة تأتي من مراقبيه الأكثر عداً. وهو لا يستطيع، في النهاية، إلا أن يلتجأ إلى كتابة ممتلئة، أي إلى كتابة تقريرية. وإنه لمن العيب أن يزعم المرء تجنب العمل المؤسسي الذي يؤسس كل عمل كتابي على اعتراضات من التواضع، والشك، أو الحذر. فنحن نرى هنا إشارات منظمة، كغيرها من الإشارات. وهي لاتستطيع أن تضمن شيئاً.

(47) جورج بوليه: «حاشية حول الزمن الراسني». (دراسات حول الزمن الإنساني، منشورات بلون، عام 1950)، ج. ب. ريشار «تفاعلة فيرلين». (شعر وعمق، منشورات سوي، عام 1955).

إن الكتابة «تعلن»، وهي بهذا تكون كتابة. فكيف يمكن للنقد أن يكون استفهامياً، أو اختياريّاً، أو شكاكاً من غير سوء نية؟. إنه كتابة، وإن فعل كتب، يعني تحديداً لقاء خطر الإبدال الصوتي، والتعاقب المحتوم لكل من الصدق/ الكذب. وإن عقيدة الكتابة حين تنادي به، إذا وجدت نفسها في ذلك، إنما هو التزام، أو هو بعض من فعل يستمر في الكتابة.

وهكذا، فإن «ملازمة» النص، ليس بالعينين، ولكن بالكتابة، تحفر بين النقد والقراءة جرفاً، وهو نفس ماتقيمه الدلالة بين حافة الدال وحافة المدلول. وذلك لأنه ما من أحد في العالم يعرف شيئاً عن المعنى الذي تضيفه القراءة على العمل. وربما لأن هذا المعنى، باعتباره يمثل الرغبة، فهو ينشأ خارج نظام اللغة.

إن القراءة، وحدها، تحب العمل ولذا، فهي تقيم معه علاقة أساسها الرغبة. فالقراءة، هي رغبة العمل. والرغبة هي أن يكون المرء هو العمل. ولذا، فهو يرفض أن يتجاوزَه إلى أي كلام يقع خارج كلام العمل نفسه: والتعليق الوحيد الذي يستطيع أن ينتجَه قارئ محض، والذي قد يبقى له، هو المحاكاة (كما يدل على هذا مثل بروست العاشق للقراءة والمحاكاة). وإن الانتقال من القراءة إلى النقد هو تغيير للرغبة. أو هي رغبة، ليس في العمل، ولكن في لغته الخاصة. ولكن هذا يعيد العمل إلى رغبة الكتابة التي خرج منها.

وهكذا، يدور الكلام حول الكتاب: قرأ، كتب. فمن رغبة إلى أخرى يمضي كل أدب. وكم من كاتب لم يكتب إلا ليقرا؟ وكم من ناقد لم يقرأ إلا ليكتب؟ فلقد قاربنا بين طرفي الكتاب، ووجهي العلاقة لكي تخرج من هذا كلمة. فالتقد ليس إلا لحظة من هذا التاريخ الذي ندخل فيه، والذي يقودنا نحو الوحدة، ونحو حقيقة الكتابة.

الفهرس

7	* مقدمة: بقلم د. عبد الله محمد الغدّامي
15	* موت المؤلف
	نقد وحقيقة

I - القسم الأول:

29	تمهيد
37	1 - الناقد المحتمل
41	2 - الموضوعية
49	3 - الدّوق
55	4 - الوضوح
63	5 - عمّة الرموز

II - القسم الثاني:

75	1 -
77	2 - أزمة التعليق
81	3 - اللغة بصيغة الجمع
91	4 - علم الأدب
101	5 - النقد
115	6 - القراءة

صدر حديثاً

مكتبة الخديعة
2000

* رياح الشمال

«رواية» نهاد سريس

* الحلم يسقط في القطة

«قصص» رحيم كريم

* وقائع سنوات الصبا

«رواية» محمود قاسم

* الغابة النائمة

«قصص» نادر السباعي



* النقد الأدبي

في القرن العشرين (٢) جان إيف تادييه

* شعرية أحلام اليقظة غاستون باشلار

* الأسلوبية بيير جيرو

* مفهوم الأدب تزيفيتيان تودوروف

* هسهسة اللغة رولان بارت

* الحداثة مالكوم برادبري

قريباً:

من مؤلفات د. منذر عياشي:

الاسلام

وصراع الأفكار

*

الاسلام وإنتاج الأفكار

*

النقد والمعيار

«نحو بحيل السني»

*

جنون اللغة

*

دراسات في علم الدلالة

الهيئة الاستشارية:

د. منذر عياشي

د. عبد النبي اصطيف

د. محمود موعد

د. قاسم مقداد

المدير المسؤول :

نادر الصلبي

ص.ب 6333 - حلب - سورية

B.P. 6333, ALEP, SYRIE

تطلب منشوراتنا



المركز الثقافي العربي

في الوطن العربي من :

□ بيروت/ الحمراء - شارع جان دارك - بناية المقدسي - الطابق الثالث .
• ص.ب/ 113-5158 / هاتف/ 343701-352826 / • تليكس/ NIZAR 23297LE /

□ الدار البيضاء/ • 42 الشارع الملكي - الأحباس
• ص.ب/ 4006 / • هاتف/ 307651-303339 /
• 28 شارع 2 مارس • هاتف / 271753 - 276838 / • فاكس / 305726 .

د. منذر عياشي



يتصدى الدكتور منذر عياشي لمهمة جليلة تتمثل في مسعاه الحثيث لترجمة نصوص من مصادرها الحديثة ، وخاصة الفرنسي منها . وقدّم من هذه النصوص النقدية المترجمة بضعة أعمال عن الأسلوبية ، وعلم الدلالة ، ومفهوم الأدب . ثم هذه الأعمال لرولان بارت وهو بذلك يؤسس لمرجعية علمية تتشكل مع ما يمثّلها لتكون مكتبة نقدية للباحث العربي

أحياناً تثار أسئلة وملاحظات تشبه تلك الأسئلة وتلك الملاحظات التي يطرحها الناس عن تكرار تحقيق مخطوطة من المخطوطات أو تكرار ترجمة عمل من الأعمال إن الترجمة هي أولاً نقل من نوع خاص لنص أجنبي ، وهذا النقل يتضمن فهم الناقل وتفسيره للأصل ، ووجود ترجمتين أو أكثر يعني وجود فهمين وتفسيرين . أو أكثر . وهذا إثراء وإضافة معرفية تزيد من ثقافة القارئ الذي لا يعرف النص الأصلي بلغته الأم ، وإذا ما تعددت النقول والتفسيرات فإن القارئ سيجد ملامح متفاوتة تشير إلى الأصل وتقترب منه كما حدث من قبل مع نقولات وتلخيصات أسلافنا لكتاب «أرسطو» في الشعر . وكما حدث في ترجمات معاصرينا لأعمال شكسبير وبحيرة لامارتين وغير ذلك من الأعمال وكما فعل الغربيون في ترجمات المعلمات وألف ليلة وليلة . حيث تكرر الترجمات ومن ثم تزداد المعارف من خلال تنوع التفسيرات والتأويلات ومحاولات اصطلياد أنفاس النص الأصلي وملاحقة نبضاته

هذه حيوية مشهودة في ترجمة (رولان بارت ... بيبير جيرو جان إيف تادييه . ترفيتيان تودوروف .. وغاستون باشلار...) هي مشروع منذر عياشي الذي يهدف أيضاً ، بالإضافة إلى كتبه المؤلفة في اللسانيات ، والأسلوبية ، والنقد ، إلى أن هناك مشروعاً فكرياً سيغني الثقافة العربية المعاصرة

د. عبد الله محمد الغدامي

إن التجديد في أي ميدان من ميادين العلم لن يمر بسهولة. وإن تأكيد هذا التجديد لن يتم مع ذلك من غير صراع ' فقد عرفت كل الحضارات هذا النوع من المخاض الصعب في حياتها الفكرية، والثقافية، والعلمية.

وهذا الكتاب الذي نقدمه اليوم إلى القارئ العربي، يعكس صورا من هذا الصراع في ميدان النقد الأدبي. فقد وقف فيه (رولان بارت)، مسلحا بمفاهيم لسانية متطورة إزاء مفاهيم تقليدية عاش عليها الغرب قرونا طويلة. ولعل هذا الأمر يذكرنا بالصراع الذي شهده تراثنا العربي، قديماً، و يفتُحُ بصائرنا لكي نتجاوز ما هو قائم حديثاً

وبهذا المعنى، يصبح هذا الكتاب مشروع تغيير، يخرج به القارئ والباحث من الطريق المسدود نحو إمكانات انجازية على الصعدين، النقدي والعلمي، كان من الصعب التفكير فيها سابقاً

د منذر عياشي